

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190549

UNIVERSAL
LIBRARY

بَدَائِعُ الْمَنَالِكِ

عشر قصص من تنقيد الفيلسوف الروسي ليو تولستوي

تعرّيب

عبد العزيز أمين المناجحي

الطبعة الثالثة

منقحة ومضاف إليها أربع قصص جديدة

١٩٢٦ هـ - ١٣٤٥

مكتبة المصطفى النجدي

لاصحة ابا اولاد محمد امين النجدي

بشاعة عبد العزيز بمصر

ارادة طبعه وكتبه الشاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قارني العزيز

أتقدم اليك شاكرًا مفتبطًا بالطبعة الثالثة من كتابي بدائع الخيال الذي يجمع بين دفتيه عشر قصص مختارة من مبهتمرات الفيلسوف الروسي العظيم «ليو تولستوي» عربتها من كتاب بالانجليزية عنوانه: Twenty Three Tales from Tolstoy. أما الشكر فبالاقبال والتعظيم للذين لقيهما الكتاب منذ اصدار طبعته الاولى في أواخر عام ١٩١٩ فطبعته الثانية في أوائل عام ١٩٢٢.

أما الاغتباط فلرواج الكتاب في زمن كثوفه نهافت القراء على الفث من القصص الموضوعة أو المعربة، وفي زمن عمت فيه الشكوى من الفوضى السائدة في سوق الطباعة والنشر في مصر. وهذا الشعور يشاركني فيه أهل الغيرة من الراغبين في الاصلاح. لقد تقدم الفن القصصى بين الأمم الغربية في يومنا هذا وأصبح من أعظم الوسائل التي يعتمد عليها رجال التفكير والاصلاح في بث آرائهم وأفكارهم وخلصامة أبحاثهم ونظراتهم

في شئون الحياة . ولقد فرجت القصص بهذا التطور الجديد
عن دائرة الغرض الذي رضعت من أجله أي التسلية .

ولكن لمن الفضل في هذا التطور ، الفاضل بلاريب عائد
عالم القاري ذاته الذي أوسع لا يعيل إلى قراءة الروايات التي
تصور له الوقائع الدورية والشخصيات العنيفة بل التصوص ورجال
الشرطة التي تدور عليهم محور القصة . أو التي تصور لهم مناسبات
المذال : محادلات الرقباء الخبيثين . جعلهما القصصى الشخصيتين
التي تربي عليهما الحديث .

هذا النوع من القصص قد قضى عليه في أوروبا وجره
تياز النوع الجديد الذي يجمع بين التسلية والأفادة ، النوع الجديد
الذي يرمي إلى بث الآراء الإصلاحية والتأفكار والملاحظات
الاجتماعية في النوب القصصى .

قد يقول قائل : إن الفرق بيننا وبينهم مازال واسما وأن
ناصري الأتق مجارون في ملك البلاد عقلية آخذة في مدارج
الكمال ، عقلية تستطيع أن تتذوق هذا النوع الجديد وأن تفهم
مافيه من فكر ومغزى . ولكننى أقول أن هذه حجة واهية لأن
القارىء في بلادنا إذا كان يقرأ القصة مجرد التسلية فانه يجد بغيته
في النوع القصصى الجديد أيضا ، لاسيما إذا كانت القصة مكتوبة

بلغة سهلة . فاللوم اذن يقع على الناشر من الذين أحدثوا في أسواق المطابع تلك الفوضى التي يشكو الجميع منها . ولكن لا تنس أي قارئ العزيز أن عليك نصيبا من هذا اللوم لأن الناشر والمحرر والمؤلف والطابع كل هؤلاء إنما ياتمرون بأمرك ويتمشون مع رغبتك فإن أردت أن ترغمهم على تقديم النافع الصالح وعرض الحديد الثمين من بين كتبات القوم فأعرض عما يقدمونه لك من القصص الشاعرية والروايات الفنتية أمثال (وقائع كارتر) (والحلقات البوليسية) (ومجموعات جونسون) وذو لها . . . وروكامبول وأم روكامبول وابن روكامبول . . . وما إلى ذلك من القصص التي إنما أعظم من نعمها .

عاهدني أن تفعل ذلك منذ اليوم وأن تنشر الفسكرة بين اخواتك وبنى عشرتك فلا تلبث أن ترى ثمرات هذا العهد بعد زمن قصير

لقد أطلت عليك الحديث وخرجت بك عن موضوع المقدمة دون ان أحدثك عن محتويات الكتاب ومزاياه كما هي العادة في المقدمات ولكن مالي والتمرض لهذا الأمر ! فالكتاب بين يديك - وقد نقدت ثمنه بلا ريب - فاقراه وانقده ووازن بين مادفته من ثمن وبين ما استفدته من مطالعته ، فاذا وجدت

نفسك وإحفاظك من المولى أن يعينى عن السير في هذا
السير . أما إن كنت مجده نافعاً لا يستحق ما بذاته أنا من
وقت في التدريس وما صرفته أنت من وقت في القراءة فعاملى
أدراك بحميل صنعتك واعلم أن لى من حسن النية خير شافع
والسلام

عبد العزيز أمين الخالجي

شارع النهضة ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦

ترجمة حياة مؤلف الكتاب

تهيئد — قد يتوالى كر الجديدين وتمر الايام والاعوام مر
السحاب طامسة باقدامها رسوم الاجيال الماضية والناس على ما هم
عليه من فطرتهم الاصلية مستسلمون لما ورثوه عن آباءهم من
التقاليد والعادات مذمومة كانت أم مرضية ، فاسدة أم صحيحة ،
ويظلمون كذلك لا يفقهون معنى لما يرونه من المراثيات ولا يحركون
ساكننا لما يمر عليهم من صنوف العظات ، الى ان يمن الله عليهم بمن
يميط اللثام عن سر ماجهولهم ويكشف لهم الستار عن كنهه ما لم
يتحققوه ، فيذهبهم من رقدتهم ويرشدهم الى ما كانوا عنه غافلين

أولئك هم أقطاب العلم ورسل التهذيب ومهبط المدينة ونور
العرفان ، بهم تهتدى الامم وعلى يدهم يتم صلاح الجماعات ونظام
الشعوب ، غير ان الدهر وهو بخيل بامثال هؤلاء الاقطاب لا يكاد
يجود بفرد منهم على رأس كل جيل حتي تنصب عليه سهام اللعنات
من كل صوب وتلقاه الناس بالعداوة والبغضاء ، والسبب واضح
جلى فالناس اذا استسلمت مدة من الزمان الى بعض العادات
الفاسدة وتوارثت طوال الاجيال العاهات والامراض النفسية
لبعضها عن بعض ، تصبح بينهم من الصفات اللازمة ولا ينظرون

اليها اذ ذاك كعاهات وأمراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية أنزلها الله على آدم ، فاذا ظهر بينهم من هو خال منها غير متحل بما ظنوه ناقصا ناصبوه العداء ونابدوه الالقاب

نظرة الى كل من اشتهر بفضل أو عرف بشيء من النبل نعلم مقدار ما عانى من الدهر وقاسى من مناوأة الناس في سبيل الحق . فهذه أئمة المسلمين وهداتهم مثل مالك والشافعي وفلاسفة هذه الامة ودعاة الصلاح فيها كالمعري وابن رشد وابن تيمية ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس وغيرهم من علماء المعقول والمنقول ممن لا تزال أشخاصهم ماثلة في أذهاننا ولا تزال نستضيء بنبراسهم قد نغص الدهر عليهم عيشهم وضيق عليهم مذاهبهم لشذوذهم عن المؤلف وخروجهم عن المعروف ولم يرجعهم ما هم فيه عن سبيل رأوه هو سبيل الحق بل مازالوا في عراك وكفاح حتى لقوا ربهم فرحين بما قضوا من واجب الارشاد عليهم غير مكترئين بما لقوا في سبيل الواجب

والسكونت تولستوى الذي أقدم الي القراء ترجمة حياته (مقتضبة من دائرة المعارف البريطانية ومجلة الهلال الغراء وبعض المجلات التركية) هو أحد أولئك الافراد القلائل الذين لا يكاد الدهر يجود بو احد منهم حتي يتفانى الناس في تمجيد خصاله ويفرقون

في اجلال ذكره واكبار شأنه لاذ يعمل الفرد منهم على اسعاد نوع
الانسان وترقية حال بني البشر اكثر مما يعمله المئات بل الالوف
من معاصريه

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا الى الفضل حتى عد الف بواحد



نشأته الاولى - تشغل حياة تولستوى ثلاثة أرباع القرن
التاسع عشر وعشر سنين من فجر القرن العشرين اذ كان ميلاده
في الثامن والعشرين من شهر أغسطس عام ١٨٢٨ في قرية (ياسنايا
بوليانا) في ولاية طولا من أعمال روسيا . فأنت ترى أن شمس
حياته بزغت في فجر القرن التاسع عشر وعاش معاصراً لكثير
من فحول العلماء والفلاسفة مثل هيجو وغوته وغيرهما من الذين
ولدوا معه في فجر القرن وغربت شمس حياتهم في أصيله

وأسرته المانية الاصل هاجرت في عهد بطرس الاكبر واشتهر
منها بطرس تولستوى الذى كان سفيرا لروسيا لدى الدولة العثمانية
وأدخل في مصاف الاشراف عام ١٧٢٤ وكان لهذة الاسرة منزلة
رفيعة بين الاسر الروسية اذ اشتهر كثير من أبنائها بالسياسة ونبغ
اخرى منهم في فن الكتابة .

أما أمه فكانت من بيت مجد عريق في الحسب وشرف الاصل

يعرف بأسرة فولكون وكانت القرية التي ولد فيها الفيلسوف ملكا لها فأقامته فيها ليقضى أيام طفولته ولكن وافاها القدر المحتم وهو في ابان نشأته فعهد بتريته الى سيدة من ذوات قرابته وانتقل به والده اذ ذلك الى مدينة موسكو حيث عاجلته المنية قبل أن يبلغ الكونث العاشرة من عمره فعهد بتريته الى سيدة أخرى من ذوات قرابته تدعى بوشكوفافمادت به الى قرية ياسنايا مقر ولادته وهناك تلقى دراسته الاولية .

تعليمه - وما كاد يبلغ الخامسة عشر حتى انتقل الى مدينة قازان وانتظم في سلك جامعتها مدة عامين توفر أثناءها على دراسة بعض العلوم العالية وفيها درس أيضا بعض اللغات الشرقية غير أنه ما لبث أن عافت نفسه الجامعة ودروسها لنفوره من اخلاق تلامذتها فعاد الى قريته ثانية وأكب هناك على مطالعة كتب مشاهير المؤلفين والادباء من الروسيين والفرنسيين والالمان أمثال روسو وهيغو وفولتير وديكنز وبوشكن وترجينيف وشيلر وغوطة ولكنه كان أكثر تعلقا بمؤلفات روسو، فعاش عيشة مستقلة لا يحتاج فيها الى مرشد ولا مؤدب الا الدهر وحوادث الايام وتتبعاته الشخصية .

أوائل شبابه - وقد أخذت الاعتبارات الفلسفية تشغل

أفكاره في أوائل شبابه فكان شغله الشاغل أيام صباه هو التفكير في (ماهو الانسان ؟) و (من أين أتى ؟) و (الى أين مصيره ؟) و (ماهى السعادة ؟) الى غير ذلك من المسائل الفلسفية العويصة التي كانت ترد مخيلته تباعاً آخذة بعضها برقاب بعض حتى نشأ عنده ميل خاص للمباحثات والمناظرات فكان يقضى طوال الساعات والايام في مجادلة أقرانه ومناقشتهم فيما يعرض له من الافكار .

انتظامه في سلك الجندية - وبينما كان الفيلسوف الشاب على الحال التي وصفناها لك حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموجيات الكتب والاسفار اذ زاره شقيق له أكبر منه سناً في قرية (ياسنايا) وكان شقيقه هذا من ضباط الجند الروسى ببلاد القوقاز ، فوصف له حالة الجند وماهم عليه من نضارة العيش ورفاهة الحال وما زال به يحسن له حالته ويرغبه الانتظام بسلكهم حتى رضى وأطاع شقيقه فاصبح في عداد الضباط وهو في الثالثة والعشرين من عمره وعند نشوب حرب القرم انتقل الى الطونة وانضم الى أركان حرب البرنس غورتشاكوف ثم انتقل الى سباستبول حيث عين قائدا لفرقة من المدفعية . وكان لانتقاله من بيئة لاخرى أثر كبير في اثارة قريحته وتوسيع خياله فتغيرت أطواره ونحوات كليته وتبظنت أعماق نفسه بانفعالات كثيرة ظهر على أثرها أهم مؤلفاته التي يصف

بها آلة الجند وأهوال الحروب وما يكابده الانسان من فظائرها
رحلته وزواجه - وفي العقد الرابع من سنى حياته تطلع الى
السفر فسافر سنة ١٨٦٢ وساح في بعض أنحاء أوربا ثم رجع الى
قريته واقترن في العام الثانى بالسيدة صوفيا ابنة الدكتور بيرس
الالماني الذي كان يقيم في موسكو فاضطر تولستوى أن يداول
السكنى بينها وبين قريته وكانت قد نضجت مواهبه واتسعت
معلوماته لكثرة ماشاهده واختبره بنفسه وكانت الحكومة قد عيذته
قاضيا في قريته فبدأ بنشر تعاليمه وأخذ يدعو الناس الى السلام
والفضيلة سواء با القدوة أو بالتعليم

عيشته اليومية - وقد اشتهر بزهده فى الحياة وتخليه عن
مظاهر الوجاهة فكان فى قريته مع زوجته وأولاده فى منزل
بسيط محاط بغابة كثيفة ليس فيه من الاثاث الا الضرورى فكان
يقوم مبكرا فيلبس ثوبا بسيطا مثل أثواب الفلاحين وهو عبارة
عن سراويل واسعة فوقها كساء كالتقميص يتمنطق حوله بسير
من الجلد .

وكان يتناول طعام الافطار ثم يذهب الى العمل فى حرت
الارض وتمهد أشجارها وبذر الحبوب ومساعدة ضعفاء الفلاحين
فى أعمالهم .

سيرته بين فلاحيه - كانوا يعجبون بتواضعه ويستأنسون بدعته ولطاف شمائله فاذا وقع بينهم خلاف تقاضوا اليه وارتضوا حكمه وكان قد أنشأ في قريته مدرسة ينفق عليها من ماله الخاص لتعليم أبناء الفلاحين وكان يتولي تعليمهم بنفسه ، فاشتهرت المدرسة وقصدها أهل المدائن الاخرى المجاورة يلتمسون الاستفادة من آرائه وفلسفته وأنشأ لهم أيضا مجلة تهديدية تصدر باسم القرية وقد بلغ من محبته لفلاحى قريته انه أراد أن ينبذ فكرة الاستئثار بالملك الشخصى وأحب أن يوزع أملاكه بينهم بالتساوى فيشتغل كواحد منهم ولكن زوجته وذوى قرابته أبوا عليه ذلك تلك كانت حاله بالصيف أما فى الشتاء فكان يقيم فى موسكو فينتقطع عن الاعمال البدنية ويتفرغ للتأليف والتحرير فيؤلف ويرسل ويكاتب

حياته العلمية - لا نكاد نذكر اسم تولستوى حتى يخطر على البال مؤلفاته العديدة ورسائله المتنوعة وأشهرها (الحرب والسلام) و (البعث) و (حناكر انينا) و (القيامة) و (أين المخرج) و (الحب والزواج) و (هم يعيش الناس) و (ديانة المسيح) و (الحياة) و (مملكة الظلام) غير أننا لا نكون مبالعين إذا قلنا أن لرواياته الثلاث الاولى وهى (الحرب والسلام) و (البعث) و (حناكر انينا) القدر المثل والمكانة السامية فى عالم الادب والتأليف لا فى روسيا

فقط بل في جميع العالم الاوروبي . ولا مرأى في أن هذه الروايات الثلاث هي الدررة اليتيمة وواسطه القلادة بين درر مؤلفاته وغو الي حكمه فان رواية (حنا كرايننا) تمتاز بدقة البحث في تصوير ما يحصل عادة في عالم الزواج من الآلام والاضطرابات التي منشؤها عدم التروى والمضى مع الاهواء النفسية وفي روايته (البعث بعد الموت) وصف الامراض الاجتماعية وصورها بكل ألوانها ومعانيها مع ذكر كيف أن الناس في هذا العصر أصبحوا يتنشقون سموم الظلم والاستبداد ويتجرعون كؤسا ملؤها الكذب والرياء بدل استنشاقهم الهواء وشربهم الماء . وفي هذه الرواية يقول الناقد الفرنسى المعروف جول لومتر: « كتب تولستوى روايته (الحرب والسلام) و(حنا كرايننا) ثم خجل من الشهرة وبعد الصيت اللذين نالهما أثر ظهورها فاحتجب في كسر داره واختفى بين صحائف الانجيل مدة خمسة عشر عاما ثم ظهر في عالم الادب ثانية وفي يده أعجوبة مؤلفاته » كتاب البعث بعد الموت «

ولو أمعنا النظر في حياة تولستوى المعنوية نرى أنها بكل ألوانها ومظاهرها سياسية كانت أم اجتماعية، دينية أم خلقية. عبارة عن سلسلة حروب شعواء كان يشنها ذلك الرجل العظيم ضد الظلم والاستبداد ومفاسد المدينة الحاضرة وردائلها فكان يرى رأى

روسو القائل بان صلاح الناس أو فسادهم إنما يدخل عليهم من باب
المعاشرة والمخالطة ويسلك اليهم من طريق البيئة والجوار ثم نظر
الى المدينة الحاضرة المشمعة بالانوار الكاذبة وفطن الى ما تحت
تلك الاضواء من ظلمة المفاسد والذائل وعلم ان التبعة في فساد
نظام الاجتماع واقع على الرئاسات الدينية والسياسية فوقف حياته
على ايقاظ اخوانه في الانسانية وقضى معظم حياته يدعو الناس
الى دينه الجديد (Religion de la bonté) وأساسه إيجاد رابطة
الحبة والشفقة بين الناس وعدم مقابلة الشر بمثله ولذا نرى أن روح
هذا المبدأ تتجلى في أغلب كتبه وتعاليمه التي تكاد تنطق بلسان واحد
هاتين الكلمتين وهما :

(١) أحبوا بعضكم بعضا

(٢) لا تقابلوا الشر بمثله

مقارنة بينه وبين أبي العلاء - ذهب بعض كتاب أوروبا الى
وجود الشبه بين تولستوى وبين روسو وعزز رأيه بأدلة لا محل
لذكرها في هذه المقدمة الوجيزة وانا نرى أنه من الظلم أن نختتم
مقدمتنا دون أن نذكر ما رأينا من وجوه الشبه بين حياة صاحب
الترجمة وحياة أبي العلاء المعري المولود سنة ٩٧٣م . فكلما الرجلين
عاش زاهدا في الحياة وكلاهما ناله من اضطهاد رجال الدين

مانفص عليه عيشه وضيق دونه المذاهب ولكلاهما آراء في الحياة
ونظرات في الاجتماع تتفق معني ومبني
اشتهر تولستوى بزهده في الحياة ونخله عن مظاهر الوجاهة
على نحو مامر بك في مقدمتنا هذه ، كذلك كان أبو العلاء زاهدا
في الحياة متخليا عن ملذاتها يردد قوله :

أتتى من الايام ستون حجة وما أمسكت كفاى نى عنان
ولا كان لى دار ولا ربع منزل وما منى من ذاك روع جنان
تذكرت أنى هالك وابن هالك فهانت على الارض والثقلان
الا إنيهما وان زهدا فى كل لذات الحياة فقد رغبا فى العلم
والتأليف اللذين قد ملكاهما واستأثرا بهما ولا شك ان ذلك كلفهما
معاشرة الناس ومجاملتهم الى حد معلوم فان أبا العلاء كان مضطرا
الى عشرة الناس لاحتياجه الي من يقرأ له ويكتب عنه ولذلك لم
يكديستقر فى المعرة حتى اشتغل بالتعليم فالتف -وله الطلاب من
جميع الاطراف . كذلك كان تولستوى مضطرا لمجاملة زواره
العديدين الذين كانوا يقصدونه من أقاصى البلاد ياتمسون الاستفادة
من فلسفته وآرائه .

وصف الرحالة ناصرى خسرو أبا العلاء المعرى بقوله
هو يحكمها (أى المعرة) رجل ضرير يعرف بأبى العلاء عظيم الثروة

ملك عددا ضخما من العبيد وكان سكان المدينة كافة خدمه أما هو
فيحيا حياة خشنة يلبس غليظ الصوف ولا يفادر بيته ولا يأكل الا
الشعير وسمعت الناس يتحدثون بأن بابه لا يفتح وأن نوابه يعملون
في تدبير المدينة ولا يلجأون اليه الا في مهام الامور الخ « ولو صح
هذا الوصف وهو ما أثبت احتمال العلامة طه حسين في كتاب
(ذكرى أبي العلاء) صحيفة ٢٣٠ بقوله : « فمن الظلم للتاريخ أن نمر
بهذا الخبر من غير أن نثبت هذا الاحتمال » . كان مشابها للمعيشة التي
كان يعيشها الفيلسوف تولستوى في قريته بين فلاحيه ومريديه (١)

(١) لم نجد في كل التواريخ التي ترجمت تاريخ حياة أبي العلاء
ما يحقق قول الرحالة أو يثبت احتمال الاستاذ طه حسين فقد أجمع الكل
على أنه كان فقيرا لا يملك من عرض الدنيا غير القليل التافه وقد رفض هبات
الملوك واعطيات الأمراء وعاش قانعا باليسير إذ كان له وقف يحصل منه
في العام على ثلاثين دينارا قدر منها لمن يخدمه النصف الا اننا مع ذلك لانكر
ما كان لاسرته التلويحية من الوجاهة وما كان لابي العلاء نفسه من المكانة
في نفوس أمراء عصره وقد ذكر الذهبي نقلا عن القفطي « ان صالح
ابن مرداس صاحب حلب خرج الى المعرة وقد عصى عليه أهلها فنازها
وشرع في حصرها ورمها بالمجانيق فلما أحس أهلها بالغلب سعوا الى
أبي العلاء بن سلمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم فخرج ومعه قائد يقوده
فأكرمه صالح واحترمه ثم قال لك حاجة قال : الامير أطال الله بقاءه
كالسيف القاطع لان مسه وخشن حده وكالنهج المبالغ (?) قاط وسطه
وطاب برده خذ العفو ومر بالعرف واعرض عن الجاهلين . فقال له صالح
قد وهبتها لك »

كان تولستوى يرى أن نظام الاجتماع فاسد يحتاج الى
اصلاح وأن فساده ناجم عن الرئاسات الدينية والسياسية كذلك
كان يرى أبو العلاء وصرح بهذا الرأي غير مرة في اللزوميات
وسقط الزند فمن ذلك قوله :

ساس الانام شياطين مسلطة
في كل مصر من الوالين شيطان
و كذلك قوله :

مل المقام فيكم أعاشر أمة
أمرت بغير صلاحها امرأؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
فعدوا مصالحها وهم أجرأؤها

رأي تولستوى في المرأة قبيح لأنه يسيء الظن بها في كل
أطوارها ويرى أن تقطع كل علاقة بينها وبين الحياة العامة فمن ذلك
قوله : «على الرجل أن يراقب سلوك امرأته ولا يطلق لها العنان
بل يحجبها في البيت والبيت دائرة حرية واسعة للمرأة، وقال في
موضع آخر في الزواج (ان الزواج أصبح في عصرنا هذا بيننا محض
خداع وغش ولكنه لا يزال يوجد عند أولئك الذين يرون فيه
سرا من أسرار الدين كالمسلمين والصينيين والهنود أما نحن فلانرى

فيه غير تلك المقارنة الحيوانية هـ
ولأبي العلاء رأى في المرأة كثير المطابقة لرأى توأستوي فهو
كثير الظن بها ويرى أن تعيش بمعزل عن الحياة العامة وتشدد في
طلب الحجاب كما أشار في قوله :

علموهن النسج والغزل والرد
ن وخلوا كتابة وقراءه
وكذلك قوله :

خمل مغازل النسوان أولى
هن من اليراع مقلات
ومنه قوله في التائية :

ولا ترجع بإيماء سلاما
على بيض أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم
وقد واجهنا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غي
لقينك بالاساور معلمات

ذكرنا أننا كيف أن تولستوى نبذ الاعتقاد القائل بالاستثمار
الشخصي وأراد أن يقسم أملاكه بين فلاحيه ويشتغل كواحد منهم

فكانه بذلك يميز رأى أبى العلاء القائل :

كيف لا يشرك المضيفين فى النعمة قوم عليهم النعماء
واقواله فى هذا المعنى كثيرة يقف عليها القارىء فى أكثر
(تروميته)

الى هنا ننتهى من المقارنة بين افكار بطلى القرن التاسع
والقرن العشرين بعد الميلاد، والى هذا الحد نكون قد أنجزنا
ما وعدنا به القارىء من ترجمة حياة فيلسوف روسيا العظيم (الكونت
لاون تولستوى) الذى أفل نجم حياته فى ٢٠ نوفمبر عام ١٩١٠
ليكون على بينة من تاريخ حياة أحد رجال العالم العظماء الذين أفادوا
النوع الانسانى بأفكارهم الصالحة وسيرتهم المبرورة وسريرتهم الطاهرة

قصيدة أمير الشعراء احمد شوقى بك فى رثاء الفيلسوف

(تولستوى) تجرى آية العلم دمعها
عليك وييكى بائس وفقير
وشعب ضعيف الركن زال نصيره
وما كل يوم للمضعيف نصير
ويندب فلاحون أنت منارهم
وأنت سراج غيبوه منير

يعانون في الاكواخ ظلماً وظلمة
ولا يملكون البث وهو يسير
تطوف كعيسى بالحنان وبالرضا
عليهم وتغشى دورهم وتزور
ويأسي عليك الدين اذ لك لبه
وللخادميه الناقين قشور
أيكفر بالانجيل من تلك كتبه
أناجيل منها منذر وبشير
تناول ناعيك البلاد كأنه
يراع في راحتك له صرير
وقيل تولى (الشيخ) في الارض هاتماً
وقيل بدير الراهبات أسير
وقيل قضي لم يغن عنه طبيبه
وللطب من بطش القضاء عذير
اذا أنت جاورت (المعري) في الترى
وجاور (رضوى) في التراب ثبير
وأقبل جمع الخالدين عليك
وغالى بمقدار النظير نظير

جماجم تحت الارض عطرهاشذى
خباهن مسك فوقها وعبير
بهن يباهى بطن (حواء) واحتوى
عليهن بطن الارض وهو فخور
فقل يا حكيم الدهر حدث عن البلى
فأنت علم بالامور خبير
أحطت من الموتى قديما وحادثا
بما لم يحصل منكرو ونكير
طوانا الذى يطوى السماوات فى غد
وينشر بعد الطلى وهو قدير
تقدم عهدانا على الموت واستوى
طويل زمان فى البلى وقصير
وهل عاجل الاحياء بؤسا وسقوة
وقل فساد بينهم وشرو
قم انظروا أنت المالىء الارض حكمة
أاجدى نظيم أم أفاد نشير
أناس كما تدرى ودنيا بحالها
ودهر رخی تارة وعسير

وأحوال خلق غابر متجدد
تشابه فيب أول واخير
تمر تباعا في الحياة كأنها
ملاعب لا ترخى لهن ستور
وحرص على الدنيا وميل مع الهوى
وغش وافك في الحياة ورور
وقام مقام الفرد في كل أمة
على الحكيم جمع يستبد غفير
وهور قول الناس مولى وعبيده
الى قولهم مستأجر وأجير
وأضحى نفوذ الناس لأمر في الورى
ولانهى الا ما يرى ويشير
تساس حكومات به وممالك
ويدعن اقبال له وصدور
وعصر بنوه في السلاح وحرصه
على السلم يجرى ذكرها ويدير
ومن عجب في ظلها وهو وارف
يصادف شعبا آمننا فيغير

ويأخذ من قوت الفقير وكسبه
ويؤوى جيوشا كالحصى ويمير
ولما استقل البر والبحر مذهبا
تعلق أسباب السماء يطير



الحكاية الاولى

بم يعيش الناس

كان سيمون صانع أحذية لا يملك من الارض قيد شبر، وكان يقطن كوخا ل احد الفلاحين ويعيش من كسب يده . لقد كان العمل إذ ذاك كاسدا وحر كته خامدة ، وزاد الطين بلة أن سبل العيش كانت مجهدة ونار الغلاء متأججة في كل حاجيات الحياة لذلك كان كل ما يقبضه سيمون ثمنا لعرق جبينه ينفقه في سبيل الحصول على قوت يتبلغان به هو وزوجه . لم يكن لذلك الشيخ وزوجه الا غطاء جلدى يتقاسمانه سويا ليدفع عنهما قر الشتاء ، ولقد استهزت فتوق ذلك الغطاء فكان هذا هو العام الثانى الذى احتاجا فيه الى شراء غطاء آخر . لذلك خرج سيمون متوكئا على عصاه موليا وجهه شطر القرية حيث يمكنه أن يجمع من بعض القرويين ما هم مدينون به من النقود . فوفى له بعضهم وأمهله البعض ونقد أحدهم عشرين كوبكا (١) فلم يكن ذلك المبلغ كافيا لشراء الغطاء ولكنه كافيا لان يدفعه سيمون ثمنا لبعض كؤوس من الفوتكا (٢) : بمدئذ قفل

(١) الكوبك عمله روسية قيمتها ١/٣ من الروبل الروسى أى أنها

تساوى ملها (٢) شراب روسى

راجعا الى منزله كسير القلب وأخذ يهدى في طريقه تارة عن غضب
زوجه وسخطها عليه وآونة يخاطب القروي الذي أعطاه عشرين
(كوبكا) قائلا : «قف قليلا ! وانقدني كل ما أنت مدين به . انك اعطيتني
عشرين (كوبكا) فقط وادعيت الفاقة ولكن ماذا يهمني وماذا عساي
أن أفعل بهذا المبلغ ، انك تملك دورا وماشية وأما أنا فلا أملك الا ما
أسد به الرمق . انك تملك الحقول الغنية بالحب والتمر وأما أنا فاشترى
كل حبة من قوت يومى . انك تسيزيد من كل شيء وأما أنا فاحتاج الى
أقل شيء فانتم مترف ذو لعمة وأنا شقى ذو متر به اذن يجب أن تدفع . هلم
لا تتردد» وما وصل من هذيانه الى هذا الحد حتى كان قد انتهى
الى معبد مقام عند منعطف الطريق ، فنظر واذا به يرى شجعا
أبيض يلوح وراء المعبد فلم يتبينه تماما لأن طلائع الليل أخذت
تطارد جيوش النهار من تلك البطاح والوديان ثم أخذ يسائل نفسه :
«ماعسى أن يكون هذا الشبح ؟ انه حجر أبيض . ولكنى لم أشاهد
هنا حجرا قبل الآن . ألا يكون نورا اذن ؟ ولكن لا . فان رأسه
تمائل رأس الانسان الا أنها ناصعة البياض وماعسى أن يفعل
الانسان هناك .» ثم اقترب من الشبح قليلا قليلا حتى تجملت
أمامه حقيقته وزال ماخامر فؤاده من الريب .

ماذا رأى ؟ رأى رجلا عارى الحسد جالسا بانحناء وراء المعبد

لا حراك به ، فتوجس سيمون من نفسه خيفة وهاله ذلك المنظر
وظن أن أحد القرويين ظفر به فقتله ثم تركه في تلك البقعة . فأوسع
خطاه وسار من أمام المعبد حتى لا يمر بالشيخ ، ثم حانت منه التفاتة
الى نوراء فرأى الرجل يتبعه بنظراته فدب في قلبه ديب من
الرب والاشفاق وأخذ يفكر فيما اذا كان يرجع اليه ليستقصى
خبره ويستفسر عن حاله أو يستمر في طريقه ، فأثر الاخرى
وظن أنه ان دنا منه فهو ليس بناج من شروره وأيضافه وغير قادر
على اغائة رجل عارى الجسد !

ماخطا سيمون بضع خطوات حتى شعر بتقريع الضمير وأخذ
يسائل نفسه : وماذا أنت فاعل ياسيمون ! أتهرب من إغائة ملهوف
ربما كان على شفا الموت ؛ أتمدو خوفا من أن تساعد نفسا ربما
كانت تلفظ آخر أنفاسها ؟ إنه من العار أن يقال عن سيمون أنه مر في
طريقه ببائس فلم ينجده وملهوف ولم يفتنه ، ثم قفل راجعا نحو ذلك
الغريب المسكين واقترب منه فلم ينتبه اليه كأنما بلغ به الضعف الى
درجة لم يمكنه معها أن يرفع جفنيه أو يدير عينيه وتأمله فرآه فتى
في مقتبل العمر صحيح الجسم لا تشوبه الكلوم ولا تشوهه القروح
ثم اقترب منه ثانية فتحرك الغريب وأدار رأسه الابيض وفتح
عينيه الفاترتين والتقى نظرة على وجه سيمون فكانت كافية لان

تبعث في قلبه الرحمة على ذلك الغريب وتملأ فؤاده رفقاً وحناناً على هذا البائس المسكين .

ثم البسه بمض ثيابه وأمره بالحركة حتى يتمشى الدم بين أعضائه وبدأ في المسير فأخذ سيمون يسأله « من أين أنت ؟ وما الذي حدا بك الى هذا المكان ؟ أطرقتك بوائق الاحداث أم هل وصلت اليك أيدي المسيئين حتى دفنت حيا بين طبقات الجليد المتجمدة ؟ فاجابه قائلاً « اني غريب عن هذه الديار ولم يسيء الى أحد ما ولكنه عقاب الله حق على » فاجاب سيمون :

- «يجب أيها الصديق أن تقابل ذلك بالرضاء والتسليم فالله رب الكل ، بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير ، والان أي جهة تقصد» .

- « كل الجهات عندي سواء » ، فبدرت على سيمون علامات

الاندهاش لأن الرجل لم تكن هيئته تشف عن خبث ولم يدل مظهره على أنه من السفلة - واستمر سيمون في حديثه قائلاً :

« هلم معي إذا الى المنزل ربما تدفء نفسك قليلاً » ثم سارا سويا وأخذ سيمون يهينم قائلاً : « اني ذهبت لشراء الغطاء فعدت الى منزلي بدونه وزيادة على ذلك أحضرت معي رجلاً عاري الجسد : ان مانروينا (١) ليفلي مرجل حقدتها عند ما تعلم ذلك » وكان كلما

عاودته ذكرى زوجته يطرق برأسه عابسا ولكنه كلما تذكر حالة ذلك المسكين ونظراته المؤلمة عاودته بشاشته وطفح ثغره فرحا وسرورا

أما (ماتروينا) فقد أنهت كل واجباتها المنزلية في ذلك الصباح وجلست تفكر في زوجها وما عسى أن يكون قد فعل وإذا بها ترى رجلين مقبلين أحدهما سيمون والآخر غريب لم تعرفه فدار بخلدها لأول وهلة أن زوجها احتسى بعض كؤوس من الخمر وما الآخر الا من أعوانه السكيرين ، ثم بدأت تصخب ولكنها انتظرت ربما ترى ماذا يصنعان : دخل سيمون منكس الرأس خجلا ثم تبعه صديقه الذي ظل واقفا صامتا لا يبدي حرا كما فلم تتردد ماتروينا في أنه من السفلة الاشرار . أما سيمون فقد خلع قبعته واستوى جالسا على أحد المقاعد كأن المياه مازالت جارية في مجاريها ولم يحدث شيء يثير غضب زوجته ثم دعا صديقه ليجلس بقربه ففعل . ثم خاطبها قائلا .

« الآن يا متروينا قدمي لنا ما عندك من العشاء » فنظرت اليه شررا وازداد حنقها واجابته « إني أعددت كل شيء ولكن ليس للسكارى الذين تلعب برؤوسهم الخمر فتخرجهم عن المؤلف »
— « ماتروينا ! لا تكثري من تهديجك وضعي حدا لثرتك

يجب أن تعرفي أولا من هو هذا الرجل « فاجابته «إني لأشك في أنه من أبناء الشريرين . فقال ! «كلا فأنت مخطئة » فقاطعته قائلة وأين النقود فصمت سيمون فكان ذلك برهانا زاد اعتقادها فيهما وداعيا قويا حرك فيها عوامل السخط فأخذت تقذح من عينها شررا وتلفظ من فيها كلمات كلها مقت و غضب وحاولت الخروج إلا أنها كانت تود أن تقف على حقيقة أمر الغريب فخففت من حديثها قليلا وانتظرت ثم ابتدرته قائلة «إذا لم يكن هذا الرجل كما أعتقد فمن يكون ؟ »

— هذا ما أردت أن أوقفك على حقيقته من بادىء الامر فاعلمى أننى عند ما واصلت الى المعبد فى رجوعى من القرية رأيت هذا الرجل جالسا بين طبقات الجليد المتجمدة لاثوب يكسيه ولا دثار يدفع عنه غائلة البرد فأشفقت عليه ودثرته كما ترين ثم آوئته الى هنا ولو لم يرسلنى الله فى تلك الآونة لكان قضى نحبه لوقته فخفنى من وطأة حديثك واعلمى أنها خطيئة كبرى ياماتروينا وتذكرى أننا سنموت جميعا يوما من الايام « فتمتمت ماتروينا ببعض كلمات يشتم منها راحة الغضب والقت نظرة على الغريب وظلت صامته

— ماتروينا ! ألا توجد فى قلبك عاطفة المحبة — محبة الله

وما سمعت هذه الكلمات من زوجها حتى نظرت الى ذلك
الضيف الغريب ثانية فشعرت بعاطفة الرحمة نحوه وقامت لوقتها
وأحضرت البقية الباقية مما عندها من الطعام وقدمته لذلك المسكين
الذى دفع ثمنه نظرة فاترة وابتسامة لطيفة عبرت عما فى نفسه من
الشكر والثناء ، وبعد الانتهاء من أكله أخذت ماتروينا تعيد الى
مساءه نفس الاسئلة التى سأله إياها زوجها من قبل فأجابها بمثل
ما أجاب زوجها وختم اجابته بقوله : « ان زوجك ذرتنى وآوانى
وأنت أسقيتنى وأطعمتنى فالله يؤتيكما خيرا » ثم بانا وأصبحنا فسأله
سيمون « ما الذى يمكنك ان تبشره من الاعمال ؟ » فأجابه « ليس
بيدى صنعة ما » فاستمر سيمون فى كلامه « ان من يريد أن يعمل
فليس من الصعب عليه ذلك » فأجابه « سأتعلم » فبدأ سيمون يعمله
كل يوم درسا من صناعته وكان ميكائيل (١) سربع البديهة فامر
ثلاثة أيام الا وكان يبشر العمل كأنه به منذ سنين عديدة . وبعد
الانتهاء من شغله كان يجلس وعيناه للسماء لا يتكلم إلا عند الحاجة
ولا يميل قط الى المجون والمزاح ، قليل الابتسام ، فلم يروه يتسم
الامرة واحدة ، عند ما قدمت اليه ماتروينا العشاء فى أول ليلة
من ليالى حياته الجديدة !

صكرت الايام ومرت الاعوام وميكائيل يثابر على العمل مواصلا ليله بنهاره ، حتى ذاع صيته وعلت شهرته بين القرى والربوع المجاورة . وفي ذات يوم بينما هم جالسون في كوخهم واذا بعربة يجرها ثلاثة من الصافيات الجياد تنهب الارض منها وتتقدم نحو كوخهم الخفير وماهى الالبعض ثوان حتى رأوا العربة قد وقفت أمام الكوخ وقفز منها سيد تلوح عليه أمارات الشرف ومخايل النبل ، ضخم الجسم أحمر الوجه ، طويل القامة . فقام سيمون لوقته وفتح باب كوخه على سمته ثم وقف محييا ذلك الزائر العظيم منجنيا أمامه بكل تودة واحترام فقال السيد بكبر « من رئيس العمل في هذا الكوخ ؟ فأجابه سيمون : « أنا يا صاحب العظمة » ثم أمر الشريف خادمه أن يحضر الجلد فأتى به ووضع على خوان في وسط الكوخ وبعدئذ وجه السيد كلامه الى سيمون قائلا ألا ترى هذا الجلد « فأجاب : « نعم يا صاحب الشرف إنه في غاية الجودة » فقال الشريف بحدة « يالك من أبله أحمق ! أو تشك في ذلك ؛ إنه ذو قيمة عالية وأريد أن تصنع لي منه حذاء على شرط أن يمكنك حولا كاملا حافظا لرونقه وشكاه أتقدر ؛ فاضطرب سيمون قائلا « نعم يمكنك يا صاحب النبل » فصاح في وجهه ذلك السيد « يمكنك يدبر . يجب أن تعلم لمن ستصنع الحذاء فان لم يكن كما أمرت سأودعك

غيابة السجن ! » فانتفض سيمون فرقا وخوفا وتلعم لسانه وهمس الى ميكائيل يطلب مساعدته في ذلك المأزق فأوماً اليه برأسه علامة للرضاء فقبل سيمون العمل ، ثم هم الشريف بالانصراف فودعه سيمون بمثل ما قابله به من التجلة والاحترام . ومما يجدر بالذكر ملاحظته سيمون أثناء وجود الشريف بالكوخ من أن وجه ميكائيل كان يتهلل بشرأوعينيه تتطلعان الى ما وراء السيد شاخصتين كأن أمامه شبحاً أو طيف خيال ، فكان ذلك موضع دهشة سيمون وعجب ماتروينا !

ثم قال سيمون لصديقه : « هيا ابدأ في العمل أيها الصديق وحذار من الوقوع في الخطأ فان السيد كما رأيت سريع الغضب » فبدأ ميكائيل في صنع الحذاء ولكنه أدهش بعمله ماتروينا اذ رأته يهيء الجلد ويخيطه لا على شكل باقي الاحذية ولكنه على شكل خفاف رقيقة فأسرت ذلك لزوجها الذي ما كاد يراه حتى استولى عليه الذهول وابتدره قائلاً « ماذا تصنع أيها الرفيق ! أنت يامن مكثت معي حولاً كاملاً بدون أن تزل أو تخطىء ، أتتقرف في دقيقة واحدة أعظم الاغلاط . . » وأراد أن يستمر في تأنيبه واذا به يسمع وقع حوافر جواد فصمت ورأى القادم فاذا هو خادم السيد يقول ! « عموا صباحاً أيها الرفاق ، إني أتيت لاجل الحذاء فدهش

سيمون واستمر الخادم في حديثه « نعم الحذاء ؟ فان سيدى ماكاد يفارقكم حتى فارقتة الحياة وأخرجناه من العربية جثة هامدة والآن فقد جئت لاعلمكم أن تصنعوا هذا الجلد خفافا للسيدة » فبهت سيمون ثم تهلل وجهه وأقبل الى ميكائيل بقبله فرحا مسرورا ، ثم أعطياه الخفاف فانصرف

مر العام إثر العام وميكائيل عايش الآن في السنة السادسة من حياته الجديدة لا ينطق الا عند الضرورة ولم تعلم الابتسامة شنتيه الامرتين في خلال هذه المدة الطويلة ، وفي ذات يوم بينما هم يعودون يشتغلون ، كل في عمله واذا بأحد اولاد سيمون صرخ مخاطبا ميكائيل « عماه ؟ هيا النظر فان امرأة معها طفلتان ، مقبلة نحونا » فنظر ميكائيل من إحدى شرفات الكوخ فرأى سيدة معتدلة القوام حسنة الهندام يرافقها طفلتان تتقدم نحو الكوخ

دخلت السيدة فقام سيمون مستقبلا اياها ومرحبا بها ثم سألها الجلوس ففعلت وقال لها « إن السرور ليשמاني اذا أمكنتي القيام بما تأمريني به » فأمرت بعمل حذاءين للطفلتين فأجابها سيمون الى طلبها . وفي تلك الآونة نظر سيمون الى ميكائيل فرأى عينيه محدقتين بالطفلتين لا يحول عنهما نظره كأنه يعرفهما من قبل فدهش ولكنه لزم الصمت

ثم ابتدأت ماتروينا تسأل تلك السيدة قائلة : « يظهر أن
ابنتيك توأمتان » فأجابتها « أجل انهما كذلك ولكنهما ليستا
طفلتى ولا تربطنى بهما رباط صلة أو قرابة » فتمعجبت ماتروينا
وقالت « عجباً ! انهما ليستا طفلتيك ثم مع ذلك تشفقين عليهما
هذه الشفقة وتظليلهما باجنحة عطفك وحنانك » فقالت السيدة
« وكيف لا أشفق عليهما وقد أرضعتهما من ثديى » ثم استمرت
المرأة فى الحديث وأخذت تسرد مجمل حكاية هاتين الطفلتين فقالت
« لقد اختطفت يد المنون روح والديهما منذ ست سنين فى أسبوع
واحد فأودع الأب رمسه يوم الثلاثاء وعلى أثره بثلاثة أيام فاضت
روح تلك الام وانتقلت الى دار الخلود أما هاتان الطفلتان فقد
ولدتا يوم الخميس الموافق لليوم الثالث من موت والدهما ولليوم
الاول من أيام الاسبوع الذى تركتهما فيه أمهما وديعه عند رب
العالمين . مسكينتا أمهما ! فقد كانت فقيرة وحيدة ليس لها فى الحياة
من يأخذ بناصرها ويقاسمها عزلتها وشقاءها . ومن ذلك اليوم ،
يوم الخميس أصبحت هاتان الطفلتان اليتيماتان غريبتين عن العالم
أجمع لا تربطهما بأهله أو أوصر الصلة أو القرابة

لقد كنت أنا وزوجى مقيمين فى ذلك الحين فى القرية
وكانت تربطنا بالدى الطفلتين رابطة الجوار وقد ذهبت لأزور

تلك المسكينة في صباح أحد الايام فما كدت أخطو بضع خطوات حتى وجعت ذعرا وهالني ما رأيت : نعم إنها لساعة رهيبية مخيفة ! رأيت الام ملقاة على الارض فدنوت منها فاذا هي جثة هامدة تملو وجهها صفرة الموت وحو لها طفلتان في المهذ تصيحان وتعولان كأنهما علتتا برزئهما فأخذتا تناديان أمهما النداء الأخير وتسمعانها صوت بكائهما قبل فراقها الأبدى . . وهكذا في ساعة ولدتها وفي ساعة فقداها .

بعد ذلك انتشر الخبر فتقاطر القرويون الى ذلك الكوخ المشؤم وعنوا بجثة الفقيدة ووضعوها في الكفن ثم وروها في التراب وعيونهم دامعة وقلوبهم يدميها الحزن والأسى — أنهم لقوم محسنون لم يكن للطفلتين نصير كما ذكرت فتكفلت بهما وتعهدت بربيتها ولم يكن لى في الحياة سوى طفل صغير اعتبطه الموت فكيف كنت أشعر بالوحدة لو لم يكن هاتان الطفلتان بجانبى وكى يزداد حى لهما فهما زهرة حياتى ونضرتها »

وبعد أن انتهت من حديثها ضمت اليها يمينها احدى الطفلتين ومسحت بيسارها عبراتها المنسجمة فتنهدت ما تروينا وقالت حقا لقد صدق المثل القائل . « إن الانسان يمكنه أن يعيش بلا أب أو أم ولكنه لا يمكنه ذلك بدون رحمة الله »

ثم ساد السكوت وانبثق نور وضاء من الركن الذي كان فيه ميكائيل وأثار كأنه ضوء الشمس القوي في الصيف فنظر واليه فإذا هو جالس ويداه على منكبيه وعيناه تتطلعان الى السماء ووجهه يتلألأ وتغره يتسم.

ما ذهبت المرأة بطفتيها حتى قام ميكائيل وانحنى أمام سيمون وقال « الوداع ! الوداع ! لقد غفر لي ربي ولم يبق الا أن أسألك عفوك ان كنت هفوت أو أذنبت » ثم تلاأت غرته وعلا وجهه غطاء نوري فانحنى أمامه سيمون قائلاً عفواً يا ميكائيل فانك لست بشرا سويا وانا ليس في قدرتي أن أرغمك على القيام عندي أو أتجاسر أن أسألك أكثر مما أريد أن تجيبني عنه الآن انك ابتسمت ثلاث ابتسامات فأشرق النور من محياك فخبرتني أيها الصديق عن سر ذلك الابتسام ومبعث هذا النور الوهاج فأجاب ميكائيل : ان الله أرسلني لأتعلم ثلاث حقائق وقد أتممتها فابتساماتي الثلاث مظاهر الفرح الذي ملاً قلبي : أما النور فينبعث مني لأن الله غفر ذنبي وسامحني فقال سيمون : ولم عاقبك الله ؟ وما هي تلك الحقائق التي بعث لمعرفة فأجابه « اني كنت ملكا في السماء فخالفت أمر ربي إذ أرسلني لأقبض روح امرأة من عباده فهبطت الى الارض واذا نأراها مسكينة هزيلة قد وضعت لوقتها توأمتين فلما رأته فقمت

كنه حقيقتي وعرفت أنني أتيت في طلب روحها فأجهشت بالبكاء
وبصوت تقطعه انغصات العميقة توسلت قائلة : «أيها الملك الطاهر
رفقا بامرأة ضعيفة كسيرة القلب قتل زوجها وحرمت من كل
نصير لها في الحياة . أنا غريبة عن العالم أجمع فأمهلي ريثما تترعرع
هاتان اليتيماتان وبعدها أموت راضية مطمئنة بربك لاتعجل
ساعة يتمها حياة الطفل بأمه » فرجعت الى ربي وبلغته رسالتها
فأمرني أن أهبط ثانية وأستل روحها وبعدها أن أدت ما أمرت به
أردت الصعود واذا بأجنحتي تسقط وريح شديدة تصدني فوقعت
بجانب الطريق . فعلم سيمون وماتروينا حقيقة هذا المخلوق الذي
شملاه بعظفهما وحنانهما طول هذه المدة ثم بكيا روعة وجلالا .
أما الملك فأخذ يقص قصته وهو يقول : « لقد هبطت الى الارض
وأنا لا أعرف ما يعترى الانسان من حر وبرد فكادت أموت جوعا
وكادت أعضائي تصير قطعة من الجليد ولكني لم أدر ماذا أفعل ؟
ذهبت الى المعبد لآوى اليه فوجدته موصداً فجلست بجانبه
واتسكأت على جدرانها اتقاء من العاصفة الشديدة وبيننا أنا كذلك
أشعر بألم الجوع والبرد إذ مر على أول مخلوق أرضي وقمت عليه
عيني منذ صرت رجلا أشعر وأتألم . تمثلت أمامي صورته فرأيت
فيها قبس النظر متجسما وظننت أن الله لم يخلق أفضع منه شكلا

فخولت بصري عنه وأما الرجل فما كاد يراني حتى استولى عليه
الرعب وسار من طريق آخر حتى لا يمر بي فلاًّ اليأس قلبي ولكني
مالبت أن رأيت راجعاً نحوى ونظراته تم عن حب كامن وعطف
مستتر فدثرني بشيابه وآواني الى منزله حيث قابلتنا زوجته وعيناها
تقدحان شرراً وغضبا ولكنها مالبت أن خففت من حدتها وعظفت
على فقدمت لى الطعام وكؤوس الشراب وإذذاك اتمت الدرس
الأول من دروسى وتعلمت احدى الحقائق الثلاث وهى : ماذا
يكمن فى الانسان فعلمت أنها «الرحمة» وحدها

جاء السيد بعد ذلك بعام واحد فأمر بعمل حذاء لا يبلى قبل
مرور حول كامل ورأيت وراءه رقيقى ملك الموت فعلمت أن
الشمس لا تغرب حتى تغرب حياة ذلك السيد وإذذاك وقفت على
سر الحقيقة الثانية وهى : «مالذى لم يحط به الانسان علما» فعلمت
أنها «حاجيات نفسه» وهنا ابتسمت ابتسامتى الثانية إذ لم يبق أمامى
الا الدرس الاخير وليس بينى وبين ملكوت السموات الا فرج
الله النهائى ظلمت عائشا معكم أنتظر مشيئة الله الى أن أتت التوأمتان
فعرفت الطفتين ولما سمعت كيف عاشا الى هذا الوقت وتذكرت
قول أمهما (ان الطفل لا يعيش بدون رحمة أمه وعطفها عليه)
تحققت بطلان هذه الدعوى ولما تساقطت الدموع من عيني تلك

المرأة — دموع الرأفة والرحمة — وضمتهما الي صدرها الممتلي عطفها
وحنانا عرفت أن في قلبها عاطفة سامية هي عاطفة (الرحمة) التي
هي سر الحقيقة الاخيرة وهي . (بم يعيش الناس)

اني لم أظل حيا لاني أخذت الخيطة لنفسى بل لأن الله قيض
لي انسانا منحني بعض ما في نفسه من (الرحمة) فشمالاني هو وزوجه
بعطفهما وحنانهما . كذلك اليتيمتان بقيتا تستنشقان نسيمات الحياة
الى هذا الوقت لابعثاء أمهما ولكن لان عاطفة الرحمة تحركت في
قلب امرأة غربية عنهما فعنت بأمرهما وبكت من أجلهما . فالعالم كله
والناس أجمعون لا يعيشون في هذا الكون بمحض تديبرهم وارادتهم
وبما يعملون حفظ كيانهم حسب ولكنهم يعيشون بعاطفة الرحمة
التي أودعها الله في الانسان فهي التي تحفظ فيهم حرارة الحياة

« ان من برحم فقد تقرب الى الله لانه هو الذي خلق فيه الرحمة »
وبعد ان أتم ميكائيل قوله غي انشودة الهيبة فاضطرب السكوت
وخر سيمون وأهله مغشيا عليهم ، ثم فتح السقف من فوقه
وظهرت الأجنحة على ذراعي الملك ثم صعد عمود من الدخان الي
السماء وهكذا ارتفع الملك الي عرش ربه ولما ناب سيمون الي رشده
وجد كوخه كما كان والتفت يمينه ويسرة فلم ير الا اسرته الاولى

مشرب سورات^(١)

عجبت لكسرى وأشياعه
وغسل الوجوه بيول البقر
وقول النصارى إله يضا
م ويظلم حيا ولا ينتصر
وقول اليهود إله يحب
رئيس النساء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصى البلا
د لرمى الجمار ولثم الحجر

(١) قد ترجم صديقنا احمد افندى شاكر الكرمى هذه القصة ونشرها في كتابه الكرميات تحت عنوان الفلسفة الشرقية ونسب وضعها الى برنارد بين دوسانت بيير وقد غمط بذلك حق تولستوى لانها من وضع تولستوى ولكنها مقتبسة من أصل فرنى للكاتب المذكور وقد نقلها حضرته عن الانجليزية من كتاب Twenty three tales from Tolostoy وهو نفس الكتاب الذى نقل منه هذه القصص وقد لاحظت عليه انه ترك اسطراً منها بدون ترجمة فضلا عن انه اهمل كثيراً فى ترجمة كثير من الجمل ولذلك لم نربدا من اعادة ترجمتها فى كتابنا هذا خدمة للحقيقة

فوا عجبا من مقالاتهم
أيعمى عن الحق كل البشر
« المعرى »

كان في مدينة سورات في الهند مشرب يجتمع فيه الكثير من الغرباء السامحين وأهل الأسفار المتجولين من مختلف الاقطار للسمر والحديث . وقد اتفق أن رجلا فارسيا من علماء اللاهوت أم هذا المشرب في أحد الايام وكان قد صرف أيام حياته يدرس كنه الاله وحقيقته ، غير تارك نحثا كتبه الاولوز في ذلك الموضوع الاقراء وكتب عنه وما زال هذا شأنه يفكر ويقراء ويكتب حتى سلب عقله واضطربت عقيدته وانتهى به الامر الى انكار وجود الخالق ثم اتصل خبره بالشاه ، ملك فارس فأمر بأن ينفي من مملكته لم يجن المسكين أى ثمرة من مجهود بحثه ودراسته في المسبب الأول وبدل أن يفهم أنه فقد عقله سلك سبيل انكار وجود ارادة عليا مسيطرة على عالمنا الارضى

كان لذلك العالم عبيد اسود يتبعه حيثما سار ، فلما ولج باب المشرب جلس العبد على حجر خارج الباب تحت أشعة الشمس واخذ يضرب اسراب الذباب التي كانت تطن حوله ، اما سيده فجلس على اريكة مستطيلة داخل المشرب وطلب فنجانا من

الافيون وتجربته . وبعد ان دب منفعول المخدر في تلافيف دماغه
أخذ يحدث احوال من خلال الباب المفتوح قائلاً :
- خبرني أيها العبد التمس أعتقد أن هنالك إله أم لا ؟
فأجابه العبد بقوله :

- لا ريب في أن هنالك إله

ثم أخرج نواً من منحنقه صنما من خشب وهو يقول
- هذا هو الإله الذي حرسني منذ ولدت . كل انسان في
بلادنا يعبد الشجرة المقدسة التي من خشبها عمل هذا الإله
استرعت هذه المحاوراة الدائرة بين اللاهوتي ومولاه انتباه
ضيوف المترب الآخريين وقد أدهشهم سؤال العالم وزادهم جواب
مولاه دهشة ، فانبرى رهى من الحاضرين عند سماعه كلمات
العبد وقال

- أيمكن أن تصدق أيها البائس الإله أن الآلهة يحمل في
منطقة رجل ؟ ليس هناك الإله واحد هو برهما هو أكبر من
العالم بأسره لانه خالقه . ان برهما هو الإله الاحد القدير ، وباسمه
العظيم بنيت المعابد على ضفاف نهر الكنج حيث يعبد الكهنة
البرهميون الذين يعرفون دون سواهم الإله الحق ، لقد مضت
عشرات الالوف من السنين وتوالت الانقلابات تلو الانقلابات

وهؤلاء الكهنة محتفظون بنفوذهم ، ذلك لأن برهما الاله الاحد الحق باسط عليهم جناح حمايته .

نطق البرهمي بهذا القول وهو يظن أنه أقنع كل انسان الا أن سمساراً يهودياً من الحاضرين رد عليه قائلاً :

كلا ان معبد الآله الحق ليس في الهند ، وما كان الله لا يحمي طائفة البراهمة بل هو رب ابراهيم واسحاق ويعقوب وهو لا يحمي سوى شعبه المختار شعب اسرائيل . ان شعبنا وحده هو المحبوب عند الله منذ بدء الخليقة . واذا كنا اليوم مشتتين في أنحاء الارض فما ذلك الا لأن الله يريد أن يبذلنا لانه وعده أنه سيجمع شمل شعبه في يوم من الايام في اورشليم ويرجع حينئذ الى البيت المقدس ، أعجوبة الزمن القديم ، مجده السالف وسيكون اسرائيل يومئذ حاكم كل الشعوب

وبعد أن أتم اليهودي قوله انخرط في البكاء ثم أراد اعادة الحديث لولا أن قاطعه مبشر ايطالي كان هناك بقوله

— ان ما قوله غير صحيح وانك لتفتري على الله لانه يستحيل أن يحب قومك أكثر من حبه سائر الاقوام ولو كان حقاً أنه فضل بني اسرائيل قديماً فإنه قد مضى تسعة عشر قرناً منذ أن أغضبوه وحملوه على تدميرهم وتفريقهم أبدي سباً في منابك الارض ، فلم

يجب لهم ايمانهم أدنى سعادة . هذا الايمان طوته يد الفناء اللهم الا
مابقى منه حقيرا هنا وهناك ، ان الله لا يفضل قوما على قوم بل
هو يدعو الجميع --- من أراد منهم النجاة والفوز - للالتجاء الى
أحضان كنيسة روما الكاثوليكية التي لا يمجدا خارجون عن
حدودها خلاصا

كان في الحلقة قسيس بروستانتى ، لم يكذب يطرق سمعه هذا
القول حتى امتقع لونه والتفت الى المبشر الكاثوليكي وقال له
« كيف تقول أن الخلاص مختص بمذهبكم ؟ ان الناجين هم الذين
يعبدون الله بروح العزم والاخلاص كما نص الانجيل وكما أمرت
كلمة المسيح » عند ذلك التفت تركى من الموظفين فى جمرک
- عزات كان جانسا يدخن قصبته وقال بروح الاتفة للمسيحيين .
- ان ايمانكم بدينكم باطل لان الدين المسيحي قد نسخ منذ
اثنى عشر قرنا بدين محمد الحق . انكم تعرفان ولا شك أن دين محمد
الحق ما زال آخذا فى الانتشار فى كلتا القارتين ، أوروبا وآسيا ،
حتى فى بلاد الصين المتأخرة المظلمة وقد قلتما نفسا كما ان الله نبذ
اليهود واستشهدتما على بطلان ديانتهما بذنوبهم وعدم انتشار دينهم ،
وعرفا اذن بصحة الدين المحمدى لانه منتشر متفوق . سوف لا
ينجو أحد سوى أتباع محمد خاتم النبيين وينجو من أتباعه أشباع

عمر (١) فقط ! أما أشياع على فلا لأن إيمانهم باطل
هنا أراد اللاهوتى الفارسى الذى كان من شيعة على أن يعترض
لولا أن ارتفع اذذاك ضجيج الحاضرين من مختلفى العقائد ومتباينى
الاديان فقد كان فيهم عدا من ذكرنا مسيحيون من الحبشة ولاميون
من التيمت واسماعيليون وعباد نار فتجادلوا واشتدت حدتهم فكان
كل واحد منهم يؤكّد أن الآله الحق لم يعرف ولم يعبد كما يجب في
غير بلاده الا رجل صيني من أتباع كوفوشوس كان جالسا جلسة
هادئة في زاوية من زوايا النادى يحتمس كؤوس الشاي وهو مصغ
لما يقوله الآخرون ولا يبدس ببذ شفة فلاحظه التركي جالسا
هنالك فتقدم اليه يقول :

- انك تستطيع أن تثبت ماقلته أيها الصيني الصالح ، انك
تحافظ على هدوئك وسكينتك . ولكن اعلم أنك ستؤيد رائى أن
تجارا من مواطنيك الذين يأتون الى متمسين منى المساعدة أخبروني
أن بالصين اديانا كثيرة الا أنكم معاشر الصينيين تعدون دين محمد
خيرها جميعها وتقبلون على اعتناق باشتياق زائد . تفضل اذن وأيد
قولى . بين لنا ما اعتقادك فى الآله الحق وفي رسوله .

فقال الباؤون : نعم . نعم . نعم ملتفتين الى الرجل الصينى قائلين له

(١) يريد بأشياع عمر اهل السنة والجماعة

- ماذا ترى ؟ دعنا نسمع رأيك في هذه المسألة

عند ذلك أطبق الرجل الصينى عينه وفكر برهة ، ثم فتحها ثانية وقال بصوت هادىء رزين بعد أن أخرج يديه من كمبه الواسعين وربعهما على صدره

- سادقى يخيل الى أن الكبرياء خاصة هى التى تقف حجر عثرة فى سبيل الاتفاق على مسائل الاديان واذا تفضلتم على بالاصغاء فسأقص عليكم حكاية تشرح مسألة هذا الاختلاف

أقد جئت هنا من الصين على ظهر سفينة انكليزية طافت العالم وقد اتفق أن فرغ الماء منا فاضطررنا أن نرسو فى سواحل سومطرة الشرقية لتزود ماء ، فاعتنم بعضنا هذه الفرصة ونزل الى اليابسة ، وكان الوقت ظهرا . جلسنا تحت ظلال صف من أشجار جوز الهند على بعد من احدى قرى الجزيرة ، وقد كنا من أجناس مختلفة ولم يكدر يستقر بنا المقام حتى أبصرنا رجلا أعمى يقترب منا وعلمنا بعد ذلك أنه فقد باصرتيه من كثرة تحديقته بالشمس وهو يحاول أن يعرف ماهي لاجل أن يقبض على نورها وقد صرف وقتا طويلا لتحقيق هذه الامنية بتحديقته المستمر فى الشمس ولكنه لم يحن من ذلك أى نتيجة سوى اصابة عينيه من شدة الضوء حتى أصبح ضريراً . فقال حينئذ يخاطب نفسه .

- ان نور الشمس ليس سائلا لانه لو كان كذلك لا يمكن صبه من اناء لا آخر ولوجب أن يحركه الهواء كما يحرك الماء وليس هو نار لانه لو كان كذلك لوجب أن يطفئه الماء وليس هو روحا لانه يرى بالعين ولا مادة لانه لا يمكن تحريكه . ومادام نور الشمس غير سائل ولا نار ولا روح ولا مادة فهو لاشيء

على هذا المنوال أخذ في القياس والجدل وكانت النتيجة التي جناها من كثرة احداقه بالشمس وتفكيره في ماهيتها ان فقد بصره ثم عقله وقد ازداد رسوخا في عقيدته بعد عماء

وكان مع ذلك الاعمى عبد يقوده فلما وصل به الى الظل أجلسه في مكان ثم التقط جوزة كانت ملقاة على الارض وشرع في عمل سراج منها . فلف فتيلة من الياقوت ثم عصر منها زيتا في قشرتها وغمسها فيه وبينما كان العبد عاكفا على عمله تنهد الاعمى وقال له .

- ألم أك محقا عند ما اخبرتك أنه لا توجد شمس الا ترى ما أشد الظلام . ومع ذلك فان الناس مازالوا يقولون ان هناك شمس! اذا كان ما يقولونه حقا ؛ فليقولوا الى ماهي تلك الشمس ؟ فقال له عبده

أنا لا أعرف الشمس ولا يعنيني أن أعرفها ، ولكن اعلم ماهو النور وهاقد صنعت لنفسى سراجا استطيع بواسطته ان أخدمك

وان أجد مأريده في كوخنا . ثم رفع العبد قشرة الجوز قائلا
هذه شمسى .

فضحك لهذا القول رجل أعرج له عكازان كان جالسا على
مقربة منهما وقال :

- انك على ما يظهر قضيت كل حياتك ضريرا . لاتعرف
ماهى الشمس . انى سأخبرك عن ماهيتها . انها كرة من نار تطلع
كل صباح من جوف البحر وتغيب بين جبال جزيرتنا فى كل مساء
وكلنا نشاهد ذلك ونراه ولو كنت بصير الراية أيضا .

فقال صياد كان يستمع حوارهما .

- يظهر انك لم تخرج من هذه الجزيرة قط . فلو كنت غير
أعرج ولو كنت خرجت الى ماوراء الجزيرة كما أخرج أنا فى قارب
الصيد لعلمت أن الشمس لاتغرب بين جبال جزيرتنا ولكنها كما
تشرق من المحيط كل صباح تغرب كذلك فى البحر كل مساء ، ان
ما أقوله لك حق لاننى أراه كل يوم بعيني رأسى . فقاطعه حينذاك
هندى من جماعتنا قائلا :

- انه ليدهشنى أن يقول رجل عاقل مثلك نظير هذه الترهات
قل لى كيف يمكن أن تنزل كرة من النار فى الماء ولا تنطفىء ؟ ان
الشمس ليست كرة من نار ، بل هى الاله (ديفا) الذى يركب

مركبة تدور حول الجبل الذهبي (مرد) أبد الدهر وقد يحدث في بعض الاحيان ان الثعبانين الشريرين (واغو) و (كتو) يهاجمان ديفا ويبتلعانه فتظلم الارض إذذاك ولكن كهنتنا يصلون لأجل خلاصه فيخلص. ان الجهال الذين على شاكلتك والذين لم يتجاوزوا حدود جزيرتهم يتصورون أن الشمس تشرق في بلادهم فقط .
وجاء الدور لربان مركب مصرى كان حاضرا فقال:

- لا انك أنت أيضا مخطيء . فان الشمس ليست إلها ولا تدور حول الهند فقط وحول جبلها الذهبي . اننى ركبت كثيرا من البحار فطفت البحر الاسود وسواحل جزيرة العرب وزرت مدغشقر والفلبين فرأيت الشمس تضىء الارض كلها لا الهند وحدها ، وشاهدتها لا تدور حول جبل بل تطالع من أقصى الشرق وراء جزائر اليابان وتغرب فى أقصى الغرب وراء الجزر البريطانية وهذا هو السبب فى تسمية اليابان ببلادهم (نيفون) أى مطلع الشمس ، اننى أعرف هذا حق المعرفة لاننى رأيت بنفسى كثيرا وسمعت أكثر من جدى الذى وصل برحلاته الى أقصى تخوم البحار . كان المصرى يود أن يستمر فى كلامه لولا ان بحاراً انكليزيا من طائفة سفينتنا قاطعه فقال :

- أنه لا توجد بلاد يعرف أهلها الشىء الكثير عن الشمس

وحر كاتها كأنجائترا . ان الشمس - كما يعلم كل واحد في انجائترا - لا تطلع من مكان ولا تقرب في مكان بل هي تدور دائما حول الارض ، ونحن على ثقة من هذا لاننا طقنا العالم فكننا حينما توجهنا نرى الشمس تبرز للانظار في النهار وتختفي في الليل كما هو الحال هنا ثم أخذ البحار عصا وشرع يخط على الرمل دوائر محاولا ان يصور حركات الشمس في السموات ودورانها حول الارض الا انه كان عاجزا عن توضيح ذلك فإشار الى دليل السفينة وقال :

- ان هذا الرجل أكثر منى علما بالامر وهو يستطيع ان يوضحه لكم تماما .

وكان الدليل متوقد الذهن الا أنه كان صامتا منذ البداية ، مصغيا الى كل ما قيل فلم ينبس ببنت شفة حتى دعى للقول فقال والكل مصغ اليه :

- انكم جميعا يحدج بعضكم بعضا وتفشون أنفسكم . ان الشمس لا تدور حول الارض ولكن الارض هي التي تدور حول الشمس وهي في أثناء دورانها هذا تدور حول نفسها مرة في كل أربع وعشرين ساعة . وفي تلك المدة لا ترى الشمس في بلاد اليابان والفلبين وسومطرا فحسب بل ترى أيضا في افريقيا واوروبا وأميركا وكثير من البلاد الاخرى . ان الشمس لا تشرق على بعض

الجبـال أو على بـعض الجزر أو على البحار حتى ولا على أرض واحدة فقط ، بل هي تشرق على السيارات الأخرى كما تشرق على أرضنا ولو أنكم نظرتـم إلى السموات فوقكم عوضاً عن أن تنظروا إلى الأرض التي تحت أرجلكم لاستطعتم أن تعرفوا ذلك كله ، ولما تماديتـم في الاعتقاد بان الشمس تشرق عليكم فقط أو على بلادكم وحدها . هذا ما قاله ذلك الدليل العاقل الذي ضرب في أنحاء الأرض وأكثر من رصد السموات العـلـا

ولما بلغ الصيني تلميذ كوفوشيو س إلى هذا الحد قال : وهكذا مسائل الاعتقاد والإيمان . إن الكبرياء والعناد هما سبب الاختلاف بين الناس كما حصل من اختلاف أوائل القوم في فهم حقيقة الشمس إن كل واحد في الأرض يريد أن يكون له إله خاص به على الأقل خاص بوطنه وقومه . وكل أمة تريد أن تحصر المعبود الحق في معابدها وهو الذي لا تسمعه السماوات أستطع معبد من المعابد أن يضاهي ذلك المعبد العظيم الذي شاده الله ليوحد الناس ويجمعهم على عقيدة واحدة ودين واحد ؟

إن كل المعابد البشرية شيدت على مثال هذا المعبد الذي هو دنيا الله . إن لكل معبد جرن ماء معموديته وسقفه المعقود ومصايحه وصوره أو دماه ونقوشه وكتب تشريعه وذبابحه ومذابحه ورهبانه

ولكن في أى معبد من المعابد يوجد جرن المعمودية يشبه البحر المحيط؟ وسقف معقود كالسموات ومصاييح كالشمس والقمر والنجوم؟ وأى رسوم تماثل الاحياء الطاخة قلوبهم بالحب الذين يعاون بعضهم بمضا؟ وأين البركات الكنيسية من تلك العطايا الالهية السهلة الفهم التي يمنحها الله لسعادة الانسان؟ وأين يوجد قانون ناصع جلي يفهمه كل انسان مثل ذلك القانون المنقوش في قلوب البشر وضماثرهم؟ وأى ضحية تساوى انكار الذات الذي يفعله الرجال المحبون والنساء المحبات كل منهما للآخر؟ وأى مذبح يساوي قلب الرجل الصالح الذي يقبل الله الضحية عليه؟ ان قربى المرء من الله تكون بقدر سمو اعتقاده به تعالى فكلاهما اعتقاد المرء بالله كلما كان أقرب منه وأدنى لتقليد كماله جل شأنه والتأسي برحمته ومحبته للانسان، لهذا يجب ان يتمتع ذلك الذي يرى نور الشمس بأبصره مالمثا أرجاء الكون عن أن يلوم أو يحتقر الرجل الخرافي الذي يرى في صنمه شعاعا من ذلك النور نفسه، بل وان يتمتع أيضا عن لوم أو احتقار الملحد الذي هو أعمى لا يبصر شعاع الشمس مطلقا»

هكذا تكلم الصينى تلميذ كونفوشيوس فشمّل السكوت كل من في النادي وكان ذلك آخر العهد بينهم وبين المجادلة في الاديان والمعائد

« كم هو نصيب الانسان من الارض »

هبط بالقارىء الكريم الى قرية صغيرة من قرى بلاد الروس
وندخل به احدى أكوأخها حيث يرى سيدتين جالستين على مائدة
واحدة تناولان الشاى وتسامران، احدى هاتين السيدتين وهى
الكبرى حضرية يشغل زوجها بالتجارة وقد جاءت لتقضى بضعة
أيام مع شقيقتها القروية الجالسة أمامها، وبينما هما فى مسامرات
لطيفة وحديث شغى أدى بهما الكلام الى المقارنة بين معيشة أهل
الريف ومعيشة أهل المدن فاندفعت الحضرية تبين اشقيقتها نضارة
الحياة فى المدن وما فيها من الترف والنعيم فى الأكل والملبس
والمسكن ثم عدت لها صنوف الملاحى وضروب الرفاهة التى
يتنعمون بها . وتدرجت الى وصف أماكن اللهو ودور التمثيل
والحدائق والمتنزهات العامة التى يغشونها رياضة للنفس وترويحاً
للخاطر كل ذلك وشقيقتها القروية ساكنة لا تبدى ولا تعيد . لان
تلك كانت قد أفحمتها بذلاقة لسانها ، الا أنها تمكنت أخيراً من
تغيير مجرى الحديث قائلة :

- أنا قانعة بمعيشتي هذه البسيطة ولو خيرت بينها وبين

معيشتكم لما فضلت سوى ما نحن فيه من بساطة ملؤها السعادة
والهناء ، لا مرء في ان دخلكم أوفر من دخلنا الا أن طراز معيشتكم
يتطلب نفقات كثيرة قد تربو على الدخل ولا يخفى ما في ذلك من
سوء العاقبة . فكم من أسر غنية كانت بالامس ترفل في حلال الرفاهة
والنعيم أصبحت اليوم بلا مأوى تسأل الناس قوت يومها فلا تجده
أما نحن القرويين فقل أن يوجد بيننا من يعيش عيشة أهل الثراء
ولكننا لا نعدم قوت يومنا على أى حال . فاجابتها الكبرى وقد
امتلت غيظاً :

- كفى يا عزيزتى يحق لك أن تقولى ذلك طالما تجددين لذنة
بمساكنة العجول والخنازير . ما أبعدكم عن محبة اللطف والكمال أيها
القرويون . بل ما أبعدكم عن معرفة ما فيه صلاح معاشكم ومعادكم انكم
تجهدون أنفسكم صغاراً وكباراً دائبين في العمل ليلاً ونهاراً ، صيفاً
وشتاء ، ثم تموتون كما عثتم فقراء لا تورثون أولادكم سوى النصب
والشقاء .

فأجابتها الصغرى .

حقاً ان ما نحن فيه من العيش جاف والعمل عندنا شاق إلا
أنه لم تتسرب الى ربوعنا مفسد المدينة ورذائلها بعد وأخلاقنا على
سذاجتها خالية من شوائب الاهواء النفسانية ولذا نعيش ما عشنا

في هدوء وسلام . ولكن أنتم في مدنكم تعيشون في جو محاط بالمر والرياء ، لاتأمن الزوجة فيه على بعلمها ولا يطعمن الرجل لزوجته . إذا بتم ليلة على وفاق لاتلبثون أن تصبحوا على شقاق . قد يأتي يوم على زوجك فتستفويه احدى الغايات - وما أكثرهن في المدن - فتفقدين إذذاك هناءك العائلي ونعيمك المنزلي ، أو يوسوس له الشيطان بمعاقرة بنت الحان فيصبح من مدمنيها فيضل سواء السبيل ، أو يسوقه الطمع الى موائد القمار وهناك البلية والدمار

ثم غيرت المرأتان مجرى الحديث وخاضتا في حديث آخر خاص بالازياء وكاتنا قد أتمنا تناول الشاي فقامتا تستعدان للنوم إذ كان النعاس قد أثقل أجفانهما .

أمارب المنزل (باهوم) فكان جالسا على الموقدة يسمع حوار المرأتين طوال تلك المدة ثم ناجى نفسه قائلا . « حقا ان شقيقة زوجتي على حق في بعض ما تقول ، فانا القرويين نعيش ماعشنا في تعب ونصب ثم يموت الواحد منا كلما عاش دون أن يجنى أقل ثمرة من عمله . آه لو كنت أملك قطعة صغيرة من الارض لكنت الآن هنيء البال قرير العين لا أخاف حتى رئيس الابالسة » . فسمع حديث نفسه ابليس وكان على مقربة منه فابتسم ضاحكا وقد عزم أن ينيله

بغيته ثم يورده موارد الملكة من حيث أطعمه . وكان بينهما بعد ذلك من الحوادث ماسوف تقرأ خبره في الفصول التالية :

أصبح باهوم والطمع يقيمه ويقعده ولا يملكه الا امتلاك أرض يصبح فيها صاحب الكلمة المطلقة يأمر وينهى كما يريد . وكان بالقرب من الأرض التي يزرع فيها حبوبه قطعة فسيحة من الأرض لسيدة من ذوات الاملاك طيبة القلب ليننة العريكة اعتادت أن تعامل جيرانها باللطف والانسانية ، الا أنه عرض لها أمر ذوبال ألهاها عن تعميد الأرض بنفسها فوكلت أمر زرعها واستغلالها لوكيل أشغالها الذي كان على جانب عظيم من الخشونة وقساوة الطبع فأخذ يذيق ضعاف القرويين جيرانه مر العذاب ويثقل كاهلهم بالفرامات التي كان يفرضها عليهم من حين لآخر . وقد حرص باهوم كل الحرص على منع أسباب التحكك بجاره الفليظ الطبع ولكن رغم ما كان يبذله من الاحتياطات والتحرز كانت بعض ماشيته تتسرب الى المزرعة فيقع بينه وبين الوكيل أخذ ورد ينتهي في الغالب بغرامة يتحملها المسكين طائعا صاغرا .

أقبل الشتاء برده القارس وابيضت ذوائب الجبال وانكشمت المشية في زرائبها فارتاح بال (باهوم) وعاش آمنا في سربه طول

فترة الشتاء ، ثم شاع في القرية أن السيدة صاحبة المزرعة عازمت على بيع أرضها صفقة واحدة وتلا هذه الاشاعة خبر مؤداه أن صاحب الفندق القائم على الطريق العالية يساومها في شراء المزرعة فذعر أهل القرية لهذا الخبر وتوجسوا منه خيفة ، لأن صاحب النزل كان أغلظ طبعاً من وكيل السيدة فجمعوا جموعهم وتشاوروا في الامر ، فقر رأهم على تأليف لجنة تقوم بشراء الارض . فتألفت اللجنة وأرسلت من قبلها وفدا الي السيدة المالكة لشراؤها ، فقبلت السيدة ولم تمنع ، الا أن الشيطان أوغر صدور بعضهم على بعض فتخاذلوا وفشلوا في مهمتهم وأخيراً عزموا على شراء المزرعة قطعاً بدل شراؤها صفقة واحدة وأن يساوم كل منهم سيدة الارض في القطعة التي يروم ابتياعها . جرى كل ذلك وباهوم ساكت لا يحرك ساكناً ينظر والها الى المزرعة وهي تباع قطعة قطعة الى أن كان ذات يوم وقد سمع ان أحد جيرانه ابتاع من السيدة قطعة من المزرعة تبلغ الحسين فدانا وقد دفع نصف ثمنها نقداً وتمهد بدفع الباقي اقساطاً لمدة سنة ، فناجى نفسه يقول : « الي متى أظل ساكناً والارض تباع » ثم حدث امرأته بآماله وقد خاطبها قائلاً .

— الاترين كيف ان أهل القرية يتهافتون على شراء المزرعة ونحن هنا لانحرك ساكناً ؟ كلا ان هذا لا يطاق يجب أن نسعى في

شراء قطعة من الارض ولو عشرين فدانا على الاقل سيما وأن الحياة أصبحت عبئا ثقيلا بمضايقة هذا الفظ. وكيل السيدة .

ثم فكرا كثيرا في الامر وتصفحا كل وجوه الراى وأخيرا قر رأيهما على الشراء ولم يكن عند باهوم سوى بضع عشرات من الروبلات فباع مهرة كانت عنده وباع كذلك نصف ماله من خلايا النحل وبعض أثاث المنزل وأجر اثنين من أولاده في احدى المزارع لمدة عام ، وأخذ أجرتهما مقدما ثم اقترض الباقي من أحد انسيائه فتوفر لديه جملة من المال يمكنه بها شراء قطعة صالحة من الارض . فذهب الى السيدة وساومها في قطعة من الارض تبلغ الاربعين فدانا وفيها أجمة صغيرة . واتفق معها على دفع نصف الثمن فورا وتمهد بدفع الباقي اقساطا على سنتين وحرر على نفسه وثيقة بالمبلغ .

تمت المباشرة وسجلت بمحكمة البلدية ووضع باهوم يده على الارض ثم مضى العام وكان المحصول جيدا فوفى ما عليه من الديون وبذا أصبح يملك قطعة من الارض يجول النظر فيها على فسيحة شتى الالوان كثيرة النماء ؟ وكان كلما مر بأرضه الجديدة رقص قلبه طربا ونظر اليها بغير العين التي كان ينظر اليها من قبل ، فعاش ردحا

من الزمن لا يعكر صفو حياته الا تسرب مواشى الجيران الى الحقل من حين لاخر . فلولا هذا المعكر لكان هناؤه أتم الا أنه احتمال ذلك فى مبدأ الامر واكتفى بتحذير أصحاب المواشى، غير أن ذلك التحذير لم يجد نفعا ، فممد الى التقاضى وأدى به الامر الى مشاكل عديدة أحفظت عليه صدور أهل القرية ، فأخذوا يعادونه سرا وجهرا أو يطاقون مواشيهم ، ترتع فى مراعيه عمدا بعد أن كانت تتسرب من نفسها على غير قصد . ثم هموا مرارا باحراق مزرعته وايصال الاذى اليه بطرق مختلفة مما أدى الى شدة البغضاء واتساع خرق العداة وبذا فقد هناءه القديم وأصبح مشغول البال لا يغمض له جفن ولا يهنأ له عيش

وشاع فى ذلك الوقت أن هناك أرض زراعية جديدة عرضتها الحكومة للاستثمار وأن الناس من جميع القرى يهاجرون الى تلك الاراضى . ففكر باهوم فى نفسه وقال : « فليهاجر من أراد من أهل القرية أما أنا فلا أبرح مكاني وسوف انتهب هذه الفرصة لتوسيع ممتلكاتى فاشترى بعض الاراضى التى يتركها أصحابها » .

وبينما كان باهوم يبنى النفس بهذه الآمال اذ نزل بضيافته قروى كان مارا بعزبته فاكرم باهوم مشواه فسأله أين كان فاخبره القروى أنه كان يشتغل فى جهات (الفولجا) حيث الاراضى التى كانت

تستمر حديثا هناك وافضي به الحديث الى وصفها والاطناب في خصوصيتها وجودتها زاعما أن الشيلم الذي يزرع في تلك الاراضى ينمو حتى يصير طوله أعلى من قامة الفرس ثم أتم حديثه قائلا : ان أولياء الامور هناك يتبرعون بخمس وعشرين فدانا لكل من أراد استثمار تلك الاراضى الخصبة وان رجلا من أهل قرية باهوم حضر تلك الجهات صفر اليدين خالى الوفاض فاصبح الآن يملك ستة خيول ورأسين من البقر ،

فقال باهوم في نفسه مالذي يعنى من هجر هذه البقعة الضيقة الى تلك البقاع الفسيحة حيث الربح الوافر والثراء العاجل وانى لا كونن من الحمقى اذا لم انتهز هذه الفرصة السانحة ولكن على أن أتحقق الامر بنفسى أولا »

كان الوقت شتاء فبعد ينتظر أوائل الصيف حتى اذا حل الربيع كان قد أتم معدات السفر فركب زورقا بخاريا أقله حتى سمارا ومن ثم قطع ثلثمائة ميل على أقدامه حتى وصل المكان المقصود فوجد الارض كما وصفها القروى وثلّم أن الفلاح المستثمر يعطى قطعة لاتقل مساحتها عن خمسة وعشرين فدانا وان هناك أرض أخرى معروضة للبيع قيمة الفدان منها لا يزيد عن ثلاث روابل ففرح باهوم بهذا الاستكشاف وقفل راجعا الى قريته بعد أن تحقق

صدق الخبر وما وصل اليها حتى شرع في بيع ممتلكاته وتهيئة ما يلزم للمهاجرة هو وأفراد العائلة .

وفي أوائل فصل الربيع سافر الي مقره الجديد وحط الرحال في قرية كبيرة من قرى تلك الاراضى وكان حظه منها هو وأولاده خمسة انصبه بلغ مجموعها ١٢٥ فدانا في جهات متفرقة من القرية التي استوطنها أى أضعاف ما كان يملكه في قريته الاولى فاصبح لديه حقل واسع ومرعى فسيح ترتع فيه كثير من الماشية . ثم مضت أيام اشتغل أثناءها باهوم بتخطيط المزرعة وبناء العزبة وشراء الدواب اللازمة للعمل ولذا كان في مبدأ هجرته قائما بحياته الجديدة فرحا بما رزقه الله الا انه ماكاد يتم ماشرع فيه حتى تسلط عليه الطمع ثانيا فصار ينظر الى أرضه الجديدة بعين الاستصغار .

زرع في عامه الاول قمحا فكان المحصول جيدا فطمع في الزيادة غير أن الارض لم تسمح له بطلبته لانها كانت تتفاوت في الخصوبة فلا تصلح جميعها لزراعة القمح فعول على ايجار اراض أخرى تصلح لذلك ففعل الا ان ذلك لم يرق في عينه أيضا فكان يشكو من بعد الارض وصعوبة النقل ففكر في نفسه قائلا :

لو كنت اشترى قطعة مستقلة خارجة عن نطاق المشروع فأبني عليها ضيعة صغيرة لكان لى من وراء ذلك فوائد جمة » وكانت

هذه الفكرة ماثلة بذهنه يفكر بها من حين لآخر . ثم سار على هذه الوتيرة وهو يستأجر أرضا ويزرعها قمحا مدة ثلاثة أعوام وكان الدهر موافقا له فربح أرباحا وفيرة لجودة المحصول الا أن ذلك كله ما كان ليقلل من طمعه بل كان يزداد تدمرا كلما فكر في المال الذي يصرفه للمؤاجر واتفق أن أجز في العام الثالث قطعة من الارض من بعض القرويين هو وأحد التجار ثم وقع بينهما وبين أصحاب الارض منازعات أدت الى التقاضي واسفرت عن خسارتهما فتدمر باهوم وقال في نفسه « كل ذلك ما كان ليقع لو أن الارض كانت لي خاصة »

ومن ذلك الحين أخذ يبحث عن قطعة أرض للشراء فأوقعته المقادير في قطعة صالحة أراد صاحبها أن يبيعها عاجلا تخلفا من عشر أحاق به وكانت الارض تبلغ مساحتها ١٣٠٠ فداناً فصلها باهوم بمبلغ ١٥٠٠ رويال يدفع نصف ثمنها فورا ويكتب على نفسه وثيقة بالباقي . وقبل أن يتم البيع بأيام مر عليه بعض التجار وطلب منه علفا لفرسه فاحتفى باهوم به ودعاه الى تناول الشاي معاً وجلسا يتحدثان فسأله باهوم من أين هو آت فاجابه أنه آت من أرض بعيدة تابعة لقبائل البشكير حيث اشترى لنفسه هناك ثلاثة عشر ألف فداناً من الارض بمبلغ لا يزيد عن ألف رويال فدهش باهوم

واستزاده الخبير فقال « وما على المرء الا أن يتودد الى الرؤساء
بهدايا فيمنحونه كل ما يطلب . وقد اشتريت لهم ملبوسا وسجادة
وعلبة من الشاي وبمض النبيذ وهدايا أخرى كلفني مجموعها نحو
مائة روبل وبهذه الوسيلة أكرمني الرئيس بأن تنازل عن ثمانين
كوبكات في ثمن الفدان الواحد » قال ذلك وأخرج صك المبايعة
يريه لباهوم وهو يقول : « ان موقع الارض قريب من النهر ومما
يزيدها أهمية انها بكر لم تستغل بعد فافتن باهوم بأقوال الرجل
ولم يتمالك عن استزادته الحديث والاحلاف عليه بالسؤال فأجابه
الرجل « إن هؤلاء القوم يملكون من الارض مالا يقع تحت حصر
ولا عدوهم على جانب عظيم من السداجة وبلادة الطبع ليس
للارض عندهم أدنى قيمة » فأطبق خاتم الحرص على قلب باهوم
وناجى نفسه قائلاً : أنا الآن أملك ألف روبل فأى شيء يجبرني
على شراء قطعة من الارض مساحتها ١٣٥٠ فداناً بينما يمكنني شراء
عشرة أضعاف هذا المقدار بنفس المبلغ دون أن أثقل كاهلي بالدين »

لم يتردد باهوم في الامر لحظة واحدة بل ما كاد الرجل يفارق
الضيعة حتى كان هو وخادمه على الطريق الموصلة الى قبائل البشكير
ليتحقق الامر بنفسه وبعد مسيرة بضع ساعات حط رحاله في

أحدى القرى ليشتري صندوقاً من الشاي وبعض النبيذ وهدايا
أخرى كما أوصاه الرجل ، ثم واصل سيره حتى انتهى الى مكان
القبيلة بعد أن قطع مسافة لا تقل عن ثلثمائة ميل فوجد الامر
كما وصفه الرجل ورأى أن القوم يسكنون الخيام بالقرب من مراعي
فسيحة يخرقها نهر عظيم وجل معيشتهم على اللحوم ومستخرجات
الالبان ولا يعمون بزراعة الارض وغرسها ، والنساء هن اللواتي
يقمن بكل الاعمال . أما الرجال فلام لهم الا الأكل وشرب الشاي
والضرب على القيثارة وكلهم أقوياء البنية صحاح الاجسام يقضون
فصل الصيف باللهو واللعب ولا يباشرون فيه أى عمل من الاعمال
وهم على درجة عظيمة من السذاجة وبلادة الطبع ولا يعلمون من
الروسية حرفاً واحداً وانما يتكلمون بلغة خاصة بهم ، ومن عاداتهم
الجميلة ، الكرام وفادة الغريب ، اذا ما كاد يقع نظرم على باهوم حتى
خرجوا من خيامهم والتفوا حوله صفاراً و كباراً يتأملون وجهه وكان
بينهم رجل يتكلم بالروسية فتوسط بينه وبين قومه وسأله عن
قصده فأخبره باهوم إنه جاء ليصيب عندهم بعض الارض ففرحوا
بذلك وأخذوا بيده الى أحدى الخيام الكبيرة حيث أجلسوه على
وسادة وثيرة وقدموا له أعز ما لديهم من المأكول والمشرب وبعد
الانتهاء من الطعام قام باهوم الى عربته وأخرج ما كان لديه من

الهدايا ووزعها عليهم بالتساوى فارتسمت على وجوههم أمارات
البشر والسرور ، واخذوا يتكلمون فيما بينهم مدة طويلة وأخيراً
أشركوا الترجمان في الحديث فالتفت هذا الى باهوم وقال له : « قد
سر القوم من هديتك أيما سرورهم ويشكرونك كثيراً على هذا
الصنيع ومن عادتهم اكرام الضيف بكل ما في وسعهم فاطلب ما تريده
منهم لقاء هديتك فانهم لا يتأخرون لحظة واحدة عن اسمافك
بمرغوبك » فأجابه باهوم : « جل رغبتى هو أن أصيب عندكم قطعة
من الارض لزرعها واستثمارها لان الارض عندكم خصبة للغاية »
فأخبرهم الترجمان بما يقول فعادوا الى حديثهم ثانياً وكان باهوم
مجهل لغة القوم وانما رآهم يتسمون ويضحكون ثم التفت اليه
الترجمان قائلاً : يقولون انهم سوف يعطونك بكل سرور قدر
ما تطلب من الارض فما عليك الا أن تشير بيدك الى قطعة الارض
التي تريدها لنفسك فتكون لك » وما كاد الرجل يتم حديثه حتى
قامت ضجة بين القوم فسأله باهوم عن جلية الامر فأخبره الوسيط
أن القوم قد انقسموا الى فريقين فريق منهم يريد ألا يبت في
الامر حتى يحضر الرئيس وآخرون يخالفونهم في الرأي

و بينما هم في جلبتهم وضوضائهم اذ برجل ضخم الجثة عريض

الاكتاف يلبس قبعة كبيرة من فرو الذئب قد دخل من باب الخيمة فوجم القوم وسكتوا كأنما على رؤسهم الطير وقد قلموا اجلالا شأن القادم واكبارا الأمره فاخبره الترجان أن القادم هو رئيس القوم فقام باهوم مسرعا وأحضر له نصيبه من الهدية وهي خمسة أرطال من الشاي وبعض الثياب النفيسة فتقبلها الرئيس شاكرا وجلس في صدر المكان والتف القوم حوله يحدثونه بشأن باهوم فاشار اليهم بالسكوت ثم التفت اليه يخاطبه بالروسية : « اخبرني القوم بشأنك وما كنت لأرد لك طلبا فاختر القطعة التي ترضاها لنفسك فان لدينا كثيرا من الارض كما ترى » فقال باهوم في نفسه « كيف أقبل منه ذلك بمجرد القول بلا قيد ولا شرط الا يجوز أنهم يندمون في المستقبل فيرجعون ما وهبوه لي من الارض !! » ثم خاطب الرئيس قائلا : « اقدم لكم جزيل الشكر علي هذا الاكرام ولكن ألا يجدر بنا أن نستوثق الامر بحجة أو سند فان الاعمار بيد الله والمرء لا يأمل ان يخلد طول الدهر الا يجوز أن يأتي بعدكم خلف لا يرضى بعمالكم فينازعنا في الارض » فاجابه الرئيس : « إنك محق فيما تقول وسوف يكون الامر كما تريد » فقال باهوم « بلغني ان أحد التجار اشترى منكم من عهد قريب قطعة من الارض وأخذ عليكم عقداً بالبيع وأنا أحب أن

تعاملوني بمثل معاملته »

فاجابه الرئيس حبا وكرامة عندما يتم الاتفاق نكتب عقدا
بذلك ثم نسجله في محكمة البلدة

فسأله باهوم . « وكم يكون الثمن » : فأجابه الرئيس بقوله :

ان الثمن عندنا محدد لا يتغير فانتا ناخذ الف روبل عن اليوم (الكامل)

فلم يفهم باهوم ماذا أراد بقوله اليوم الكامل فسأله مستفهما .

« ماذا تعنى بلليوم الكامل وكم فسدانا يكون » فأجاب الرئيس :

« نحن لانستعمل المقاييس في مسح الارض وانما نقدرها بالسير

فيها يوما كاملا وثمان الارض التي يقطعها المرء مشيا على أقدامه

يوما كاملا هو الف روبل « ففرح باهوم وصاح قائلا : ولكنني

اقطع في اليوم أرضا كبيرة للغاية » فأجاب الرئيس « كل ما تسير

على قدر جهدك يكون ملكك على شرط الرجوع قبل غروب

الشمس فاذا غربت الشمس ولم ترجع تخسر جميع ما تدفعه من

المال » فقال باهوم . « ولكن كيف السبيل الى معرفة الارض التي

اقطعها ؟ » فأجابه قائلا :

- ان ذلك سهل ميسور عليك ان تختار لنفسك بقعة من

الارض تسير منها . وعند كل ثنية من الارض تحفر حفرة صغيرة

تجعل بجانبها كومة من التراب بفأس صغير يكون معك لهذا الغرض

وعند الانتهاء نصل نحن تلك العلامات بحرارة دائرة الأرض التي تقطعها
في اليوم ولك مطلق الحرية في أن تسير في الأرض كما تريد على
شرط الرجوع قبل غروب الشمس

فارتاح لذلك باهوم وتقرر أن يبدأ في السير صباح ذلك اليوم
ثم أكملوا يومهم في الحديث والمناذمة حتى إذا أقبل الليل فرشوا له
فراشا وثيرا وتركوه في الخيمة لينام فيها ليلته بعد أن وعده الرئيس
بأن يوافيه صباحا قبل بزوغ الشمس



رقد باهوم طول ليلته وهي يبني لنفسه التصور والعلالي
متقلبا على فراش الأمانى والأحلام دون أن يغمض له جفن أو
يكتحل بنوم وقبيل الفجر أخذ التعب منه مأخذه وقد تغاب عليه
النعاس فأخذته سنة من النوم ثم رأى فيما يراه المنام أن الرئيس
أقبل عليه ينتظره على باب الخيمة فخرج إليه يسأله عن جليلة الأمر
فوجد أن القادم ليس الرئيس وإنما هو الرجل التاجر الذي أرشده
إلى أراضي البشكير فتقدم منه وقد هم أن يسأله متى حضر وإذا
به يري في وجهه صورة الرجل القروى الذى أقبل إليه في قريته
الأولى من جهة الفولجا فهم أن يصفحه ويترحب به وإذا به يرى
في وجهه صورة إبليس اللعين في شكل بشع ومنظر مريع فأشاح

بوجهه الى جهة أخرى فرأى جثة انسان ملقاة على مقربة منه
فاقترب من الجثة ليتأمل وجه صاحبها ولكنه ما كاد يقترب منها
بعض خطوات حتى ارتد مذعوراً لأنه رأى فيها صورة نفسه . ثم
قام من نومه وهو على هذه الحالة ممتقع اللون ترتعد فرائصه فرقا
ونظر الى باب الخيمة فلم ير غير حمرة الشفق فعلم أن ستر الليل
أوشك أن يتمزق فلا يمضى القليل حتى يسفر الصباح عن وجهه
فهب من فراشه وهو يقول : ما أكثر ما يرى الانسان في نومه
لاشك ان ما رأيتة هو اضغاث أحلام . وها قد قرب الصبح والقوم
نيام بعد « ثم ذهب مسرعاً نحو خادمه الذى كان نائماً فى العربة
فأيقظه وأمره بالاستعداد ثم أسرع نحو القوم يوقظهم فصحا القوم
واجتمعوا فى خيمته ولم يلبث ان وافاهم الرئيس وكانت الشمس قد
قاربت البروغ فأمر باحضار طعام الافطار وعرض على باهوم تناول
بعض الشاى فأبى قائلاً : « لم يبق متسع من الوقت فلنبداً بالعمل
ان كنا فاعلين »

وعند ذلك وقف القوم استعداداً للمسير ثم ركب بعضهم العربات
وامتطى اخرون متون الجياد وركب باهوم عربته وسار فى طليعة
القوم مع الرئيس وبعد أن ساروا قليلاً وصلوا الى تل صغير يشرف

على سهل فسيح الأرجاء وكانت الشمس قد بدأت في البروز فوق
القوم وتقدم الرئيس قائلاً وقد أشار بيده الى السهل : « انظر كل
هذا السهل الفسيح ملك لنا ولك أن أن تسير فيه أنى تشاء » وبعد
أن قال ذلك خلع قبعته ووضعها على الارض قائلاً . « فلتكن هذه
القبعة علامة لمبدأ سيرك فابتديء في السير من هنا ثم ارجع اليها
ثانية بعد أن تم دورتك وكل الارض التي تمشي فيها تكون ملكاً
لك »

ولم يمالك باهوم من اظهار الفرح والسرور عند ما رأى ذلك
السهل الفسيح وتيقن انه خصب يصلح لزراعة كل أنواع الحبوب
ثم أسرع من وقته فوضع ماله من النقود وهو الالف روبل في
قبعة الرئيس ثم طرح رداءه الخارجى وشمر عن أكمام قميصه ليكون
خفيف الحمل في الـ متنطق بسير من الجلد شده على وسطه
وحمل على ظهره حقيب صغيرة فيها بعض الزاد وما يلزم لشربه ذلك
اليوم ثم أمسك بالفأس والتفت يمنة ويسرة ليختار له وجهة للسير
وبعد أن وقف برهة ناجى نفسه قائلاً . كل الارض سواء ولكن
يحسن بي أن أسير نحو الشرق » قال ذلك وحمل فأسه على ظهره
وسار يتبع مشرق الشمس

وبعد أن قطع نحو ألف ياردة وقف قليلا لحفر الأرض ثم
جعل بجانبها كومة من التراب علامة لوصوله تلك البقعة وكان يمشي
مشيته الاعتيادية لا يعجل ولا يمدو فقطع بذلك ألف ياردة أخرى
وجعل علامة أخرى ، ثم مشى قليلا ونظر الى التل حيث كان القوم
فلم يتبينهم جيدا لانه كان قد ابتعد عنهم كثيرا بمسافة لا تقل عن
الثلاثة أميال كما قدرها باهوم في نفسه وكان الوقت ضحي فابتدأ
يشعر بحرارة الشمس فقال في نفسه « قد قطعت ربع ما يجب أن
أقطعه في اليوم وعلى أن أتم المربع في باقى اليوم ولكن لا يزال
أمامى متسع من الوقت » قال ذلك وخلع نعليه وربطهما في وسطه
ليرتاح في المشى ثم سار في وجهته الاولى وكان كلما سار وجد الأرض
أخصب والتربة أجود . فقال في نفسه . « انه من الحق ترك هذه
البقعة الخصبية ماعلى لو سرت ثلاثة أميال أخرى » فسار فيها وقد
جدد الحرص في نفسه همته الاولى حتى أخذ التعب منه مأخذه
فنظر واذا بالشمس في كبد السماء فعلم أن النهار قد انتصف فوقف
ريثما جعل علامة لوصوله تلك البقعة ثم جلس للغداء فأكل بعض الزاد
وشرب قليلا من الماء وانتصب واقفا وهو يقول . « يجب أن
أسير لأن الراحة تجلب النعاس واذا نمت قليلا لا آمن من الخسارة »
فسار من وقته وقد أراد أن يعطف الى جهة أخرى اتماما للمربع

غير أنه أبصر على مقربة منه أرضا منخفضة فقال في نفسه . « هذه الارض تصلح لزراعة الكتان وما كنت لأترك هذه الفرصة » قال ذلك ومشى حولها حتى اذا ما أتم مسيره وقف عند نهايتها وجعل علامة لوصوله تلك البقعة أيضا . ثم نظر الى التل فرأى أن حجمه قد صغر جدا فعلم أنه قطع كثيرا وانه ان لم يسرع في الرجوع خسر كل آماله . فأسرع لوقته وهو يقول . « ان الارض التي قطعتها لانسبة بين طولها وعرضها اذ أن الطول سوف يربو كثيرا على العرض ولكن رغم ذلك فقد أصبحت أملك قطعة فسيحة من الارض » ثم وقف برهة يحفر الارض بسرعة زائدة لتكون علامة ووصوله تلك الجهة وبعد أن أتم عمله انعطف نحو التل يريد الرجوع مسرعا الا أن كثرة المشى وشدة الحر انهكتاه فصار يمشى بصعوبة ويتهدى في مشيته كالشيخ الضعيف بعد أن كان يهرول أما قدماه فقد تشققتا وسالت الدماء منهما لكثرة ما اصطدم أثناء مشيه بالحجارة والحصى وهو لا يعي وتخاذل ساقاه وضعفتا عن حمله اذ كان في حاجة شديدة الى بعض الراحة ولكن انى له ذلك والشمس آخذة في الغروب شيئا فشيئا وكان ما عليه من الحمل يضايقه كثيرا فرمى حقيبته أولا ثم نمليه وخلع بعد ذلك صدرته وهكذا صار يرمى ما عليه من الملابس حتى لم يبق عليه سوى

القميص والسروال وأمسك بيده الفأس ليتوكأ عليه وسار يمدو بكل قواه واستمر مدة على هذه الوتيرة ثم نظر الى الشمس فلم أنها لا تلبث أن تغرب ففزع لذلك كل الفزع وقال في نفسه: « رباہ ماذا العمل يخيل لي أن الطمع سيفسد على كل أمالي » غير أنه ما لبث أن تشجع قائلاً « عار على أن أرجع عن عزمي فاتقاعد عن السير بعد أن قطعت هذه المشقة الطويلة » فجمع نفسه وسار يمشي بكل قوته حتى قارب التل فسمع صياح القوم من بعد فتشجع ثانية وأخذ يمدو بكل ما فيه من قوة وعزم وكانت الشمس قد قاربت الغروب فلا تمضى بضع دقائق حتى تختفي عن الأنظار الى ما وراء الشفق الاحمر ، الا ان باهوم كان في ذلك الوقت على مسيرة بضع خطوات من سفح التل يسمع صياح القوم ويميز أصواتهم ويرى قبعة الرئيس عند ذلك تذكر ما رآه في الحلم فقال في نفسه : « حقا ان الارض التي قطعتها فسيحة الأرجاء بعيدة المدى ولكن هل كتب لي في لوح المقدور أن أعيش عليها » ثم عاد فتذكر أنه على قيد خطوات من مبدأ مسيره وانه ما عليه الا أن يجمع عزمته ثانية فيصل اليها ويملك الارض . فجددت هذه الاماني في نفسه ميت الأمل فسار طورا يتهادى كالشيخ الضعيف وتارة يجبو كالطفل الرضيع حتى وصل سفح التل عند ذلك نظر واذا بالشمس

قد غربت وأصبح السهل في ظلام حالك فتقطعت نياط قلبه وصاح
يقول : «أواه قد ذهبت أتماسي أدراج الرياح » الا أن القوم لم
ينقطعوا عن صياحهم وندائهم فتذكر أن مكانهم أعلى من مكانه
لانه مازال في سفح التل وان الشمس لاتزال ظاهرة لديهم فتنفس
الصعداء وجمع كل ما لديه من قوة وعزم وأخذ يصعد التل فوصل
القمة وكانت الشمس لاتزال ظاهرة لديهم ثم عاد فتذكر ما رآه في
الحلم فصرخ صرخة مزعجة وارتمى على الارض بالقرب من قبعة
الرئيس : وقد وضع يده عليها ، فقال الرئيس « انه سعيد الحظ فقد
أصاب قطعة كبيرة من الارض » ثم أسرع خادم باهوم ليرفعه عن
الارض وليكنه ما كاد يرفعه قليلا حتى سال الدم من فمه وارتمى على
الارض جثة هامدة . فوجم القوم وأطرقوا برؤسهم الى الارض
وقد ارتسمت على وجوههم الكتابة والحزن
وقام خادم باهوم فحفر سيده قبراً يبلغ طوله ست أقدام
وكان ذلك كل نصيبه من الارض



ابن العراب

بسم الدهر ذات صباح لقروى فقير فرزق طفلا فرح به
فرحا شديداً وعلق عليه آمالا كبيرة وأسرع لوقته نحو جاره العزيز
مستبشرا فأخبره بالأمر وطلب منه أن يكون عرابا للطفل. ولكن
جاره العزيز أنف من ذلك ورده خائبا فانصرف المسكين يتعثر
بأذيال الخيبة والفشل وقصد جاره الثاني فالثالث ثم الرابع وهكذا
حتى طرق أبواب القرية على غير جدوى لالذنب أتاه أو لجرم اقترفه
سوى أنه فقير معدم

أظلمت الدنيا في وجهه أثر هذه الصدمة الشديدة فسخط
على الدهر وتبرم من جده العائر ثم خرج من قرية موليا وجهه
شطر القرية المجاورة بغية أن يجد فيها من لا يأنف من أن يكون
عرابا لمولود فقير فسار المسكين (في طريقه) تتناوبه الاحزان
وتتقاسمه المومم والاشجان لا يلوى في طريقه على شيء

وما كاد يبلغ نصف الطريق حق استوقفه رجل طارحه السلام
وسأله عن وجهة مسيره . فأخبره بما وقع له ذلك اليوم ثم ختم
بديته قائلا : واني الآن ذاهب الى القرية المجاورة عساني أجد

رجلا لا يأنف من أن يكون عرابا! لطفلى فابتسم الرجل المجهول
وقال أنا أ كفيك مؤونة البحث والتعب دعنى أكون عرابا لولدك .
ما سمع القروى المسكين هذه الكلمات التى نزلت على قلبه بردا
وسلاما حتى تهلل وجهه بالبشر وتمم بمض كلمات يشكر بهامعروف
الرجل ولكن عاد فمبس ثانية كمن تذكر أمر افاته فقال وصوته
يتهدج حزنا

- آه يامولاي لم تنفرج الازمة بعد . قل لى بربك . أين أجد
امرأة طيبة القلب نظيرك تقبل أن تكون عرابته
- لا تحزن يا صاح فأنا أرشدك الى امرأة صالحة تقبل ذلك عن
طيب خاطر . اذهب الى المدينة وهناك فى الساحة العمومية تجد
منزلا مبنيا بالآجر فى مدخله حانوت فاسأل عن صاحب هذا
الحانوت وعند ما تقابله أخبره بالامر واطلب منه أن تكون ابنته
عراة لولدك فانه لا يردك خائبا

فهز القروى كتفيه يئأس كمن يرتاب فى أمر لا يرجوه ثم
خاطب الرجل قائلا :

- أمثلى يطلب من تاجر غنى أن تكون ابنته عراة لابنى
لا ريب فى أنه سوف يهز أبشأني ويزدريني اذا تجاسرت على مثل
هذا الطلب

فأجابه الرجل بملء السكينة

- لا تدع اليأس يتطرق الي فؤادك بل كن واثقا بانه سيجيب طلبك فاسرع يا عزيزي قبل فوات الوقت وغدا صباحا تجدني حاضرا في حفلة التنصير

فقفل القروي راجعا الى قريته وامتطى فرسه وقصد المدينة يبحث عن حانوت التاجر وعند ما اهتدى اليه وترجل عن فرسه قابله التاجر بوجه باش وسأله عن حاجته فاجابه والحجل يكاد يعقد اسنانه اعلم ياسيدي أنه ولد لي في هذا الصباح طفل وقد جمعت أرجوك أن تفضل بأن تكون ابنتك عرابته . فسأله التاجر

.. ومتى تكون حفلة التنصير ؟

- غدا صباحا

.. حسن سوف تكون ابنتي عندك غدا فاذهب مطمئن البال .
وفي اليوم الثاني حضر الرجل المجهول وحضرت ابنة التاجر وبعد أن أتم السكاهن تنصير الغلام انصرف الرجل المجهول ولم يعلم عنه شيئا بعد ذلك اليوم



مضت أيام وشهور كبر أثناءها الطفل وزرع فأدخله والداه مدرسة القرية فتعلم فيها كل ما يمكن أن يتعلم وخرج منها

شابا متين العضل قوى البنية تلوح على وجهه أمارات الجهد
والاقدام

جاء عيد الفصح فأشرقت منازل الفرية وأكواخها بالانوار
وخرج القرويون زرافات ووحدانا وعلى وجوههم سماء البشر
وأمارات السرور. أما طفل الأُمس وفتى اليوم فسكان يسير وحيدا
منفردا مبتعدا عن الضجيج يفكر في عرابه المحبوب ذلك الرجل
الطيب القلب الذى رضى بكل ارتباح أن يكون عرابا له فى الوقت
الذى أنف أهل قرينته من هذا الامر . ثم ناجى نفسه قائلا :

— آه لو استطعت . مقابلة ذلك الرجل الطيب إذن لكنت
أوقف كل حياتى على خدمته واحترامه

ما كاد يصل من حديث نفسه الى هذا الحد حتى التفت
الى يمينه واذا به يرى شيخا يده على عصاه تلوح عليه الهيبة
والوقار وكان يدنو منه باسمه وهو يقول .

— أقدم يانى ولا توجل أما كنت منذ هنيهة تحدث نفسك
مستفهما عن . مقر ذلك الرجل الذى رضى أن يكون عرابا لك فى
طفولتك فهامى المقادير جمعتك به لتقدم له تحية عيد الفصح

وعند ذلك ارتبك الشاب لهذه المباغته ولمكنه . سرعان ما
تمالك نفسه وتقدم الى الرجل باسمه وشكره على معرفته السابق وقدم

له تحية العيد بأن قبله ثلاثا كما هي المادة ثم خاطبه قائلاً .

- كم أكون مسروراً ياسيدي اذا شرفتي بمعرفة اسمك ومكان

اقامتك لا قوم نحوك بما يجب لابن نحو عرابه

- لا سبيل الى معرفة اسمي اذ لا يهملك ذلك وأما اذا رغبت

في أن تعلم مكان اقامتي فما عليك الا أن تذهب غدا الى هذه الغابة

المجاورة وتمشي فيها حتى ينتهي بك المسير الى ساحة صغيرة محاطة

بالاشجار الباسقة فتقف في ذلك المكان قليلا تتأمل ما حولك فترى

طريقاً ينتهي بك الى قصر شاهق تحيط به حديقة غناء هذا هو

منزلي . في فناء هذا القصر تجدني في انتظارك

وما وصل الرجل من حديثه الى هذا الحد حتى رفع الشاب رأسه

ليتأمل وجه عرابه جيداً واذا به لا يرى امامه سوى الحقول الخضراء

وعلى بعد منه يسمع ضجيج أهل القرية في سرورهم وابتهاجهم

بالعيد . فقف راجعاً كمن هو في حلم لا يصدق ما رآه وأزمع المسير

الى الغابة صباح ذلك اليوم ليتأكد صحة ما سمعه وراه



وما كادت الشمس تشرق حتى كان الشاب في طريقه الى الغابة

يعدو في مشيته ونفسه تنزع الى معرفة سر الرجل حتى اذا انتهى

به المسير الى الساحة التي وصفها له عرابه وقف يتأمل برهة فرأى

طريقا غاية في الابداع تحف به الاشجار على الجانبين وينتهي بقصر
شاهق عايط بيستان جميل يتلألأ في تلك البقعة النضرة تلالؤ
السكرؤب المنير

عند فناء هذا القصر البديع قابله عرابه بوجه باسم ومشى به الى
الحديقة أولأ ثم القصر ثانيا متنقلا به من جهة لأخرى يريه مقاصير
القصر ويطلعه على محتوياته وكان كلما مشى خطوة زاد تعجبه من
محتويات القصر وفرشه التمين الى أن انتهى بهما المسير الى غرفة
مقفلة فوق العراب أمامها وأشار اليها قائلا : « قد انتهينا الآن
من طوافنا وقد أطلعتك على كل ما فى القصر ولك أن تمرح فيه
كيف تشاء وانى شئت ولكن حذار أن تدخل هذه الحجرة »

وما كاد العراب يفرغ من كلامه هذا حتى اختفى عن الانظار
ولم يظهر له أثر بعد ذلك . ففضى الشاب ردحا من الزمن وقد
طابت له السكنى فى القصر فماش هنيه البال قرير العين مدة تقرب
من الثلاثين عاما مرت عليه كحول واحدا لاعتباطه وسروره

مرت عليه تلك المدة الطويلة وهو فى مقام كريم وعيشة
راضية ثم تسرب اليه الملل شيئا فشيئا فصار يطوف القصر طول
يومه يبحث عن شئ جديد يسلى به النفس واذا به واقف
ذات يوم أمام الغرفة المقفلة ثم تذكر وصية عرابه فتنازعه عاملان

عامل الفضول وعامل احترام الوصية . وأخيرا تغلب عليه الفضول
فتفتح الباب ثم ولج الغرفة وتقدم فيها بضع خطوات فرأى نفسه
في بهو فسيح يتوسطه عرش كبير يصعد إليه المـرء بمضغ سلمات
فتقدم نحوه ورقبيه ثم جلس يتأمل ما حوله فوقع بصره على
صولجان بديع الصنع بالقرب منه فداليه يده ليمسكه وما كاد الصولجان
يستقر بين أصابعه حتى سمع ضجة وجلبة واذا بأركان الغرفة تهتز
ثم ارتفع جدران البهو فنظر واذا به يرى العالم أجمع منبسطاً أمامه
وهو ينظر إليه من عل، نظر امامه فرأى البحار والمحيطات تمخر
فيها المراكب وتشق عباها السفن ثم التفت يمنة فأبصر عوالم
غريبة وأجناساً مختلفة من البشر يخالفونه في الشكل واللباس ثم
ادار وجهه الى جهة أخرى فرأى اناسا يقاربونه في شكلهم ولباسهم
يتكلمون بلغة يفهمها فعلم أنهم روسيون مثله فتهلل وجهه وحدثته
نفسه أن يبحث عن أهله وقريته بين مئات من القبرنى وما كاد
يهتدى إليها حتى خطر بباله أن يتفقد حقل والده فصوب نظره نحو
الحقل فرأى أكداس الحصيد منتشرة في طول الحقل وعرضه على
أهبة النقل ثم أصر رجلا يتسلل الى الحقل بعربته فظن أن والده
جاء ليلا ليحمل الغلال الى مخازنه ولسكنه لم يكن يتبينه حتى علم أنه
(واسيلي كوندارتشوف) جاء متسترا باثواب الليل ليسرق بعض

القمح . وعند ذلك انتفض الشاب غضبا وصاح بأعلى صوته هم
يا أبت فان اللص يسرق القمح من مزرعتك . وكان الوالد اذ ذلك
نائما على بعد من المزرعة فقام من فوره ينفض عن نفسه غبار النوم
ويناجي نفسه قائلا : « قد نبهني صوت هاتف يقول ان لصا يسرق
الحنطة من الحقل فسوف أذهب الى هناك لأتحقق الأمر بنفسى »
قال ذلك وامتطى فرسه ثم أسرع للحقل وهناك رأى اللص (واسيلي)
فأمسك بخناقه وساقه الى السجن

عند ذلك اطمأن بال الابن وصوب نظره الى مدينة القرية
ليتفقد حال عراته ابنة التاجر فعلم أنها تزوجت من رجل تاجر
ثم نظر فرآها نائمة ورأى زوجها قد قام الى الباب متسللا ثم خرج
يمشى في طرقات المدينة ليلا فاتمه النظر فرآه قد دخل عند امرأة
أخري علم أنها خليلته ذهب اليها في تلك الساعة ليخون امرأته
فاستغزه الغضب لهذا الامر وصاح بعرايته ينجيها قائلا :

« ألا انتبهى أيتها الغافلة فان زوجك يسلك طريق الغواية »
فقامت المرأة من نومها فزعزعة وتلمست مكان زوجها فلم تجده
فتحققت صدق قول الهاتف فلبست ثيابها بسرعة وذهبت تبحث
عنه الى أن اهتدت اليه وهو بين أحضان خليلته فشب بينه وبينها عراك
عنيف ورجعت الى بيتها مفضبة بعد أن أوسعت زوجها شتما وتوبيخا .

وعند ذلك اطمان الشاب وخطر بباله أن يتفقد حال أمه فصوب نظره نحو البيت فأبصر لصا يحاول كسر الصندوق الذي اعتادت أمه أن تضع فيه أمتعتها ووجد أمه نائمة بالغرفة المجاورة فرآها قد استيقظت على أثر صوت الكسر ورأى أن اللص قد أمسك يمينه فأسأ يريد أن يهوى به على رأس أمه ليقتلها . فلم يتمالك الولد أن هوى بالصولجان على رأس اللص فوق لساعته قتيلا عند ذلك اهتز اركان العرش وسمع صوت الجدران تنزل ثانية ثم نظر واذا بالغرفة قد عادت كما كانت وبعد برهة فتح الباب ودخل عرابه متقدما نحو العرش فأخذه بيده وأنزله منه وهو يقول :

«هاأنذا أراك قد خالفت أمري وارتكبت معصية الدخول الى الغرفة مع تحذيري اياك ثم اتبعتها بخطيئة أخرى عندما علوت العرش وتداخات فيما لا يعينك وأخيرا ختمت هاتين المعصيتين بجرم أفظع اذ قتلت نفسا بشرية ولوتسنى لك أن تمكث هنا نصف ساعة أخرى لكنت تتلف نصف العالم»

قال الرجل هذا القول وأمسك بيد الشاب وقاده ثانية وانكشف العالم أمامهما مرة أخرى ثم أشار العراب بيده قائلا : « انظر ماذا قدمت لوالدك من اساءة كنت تظنها مكرمة . هاهو واسيلي اللص

قد أمضى سحابة عامه بين جدران السجن مهد الشر والموبات
فازداد غلظا وشراسة وكانت فاتحة شروره بمدخوجه من السجن
أن سرق فرسين لوالدك وها هو الآن يضرم النار في أجران
القمح انتقاما لنفسه من أبيك . كل هذه المصائب أنت السبب في
جلبها لايك » فنظر الشاب أمامه فرأى أكوام القمح تحترق فهلم
قلبه اضطرابا ولم يتمكن من ادامة النظر لأن العراب التفت الى
جهة أخرى وأشار قائلا : « انظر ها هو زوج العرابة مضى عليه
عام بعد هجر زوجته ولم يقطع بمد عن شروره وآثامه أما خليلته
فقد زادت انغماسا في شهواتها وها هي عرابتك تندب سوء حظها
وتقضي ليلها تعالج همومها بالمسكرات بغية أن تجد الصبر والسلوان
فهل رأيت صنمك لعرابتك والآن انظر لترى ما قدمته يدك
لامك المسكينة » فنظر واذا به يرى والدته في كسر دارها قد أثقلت
ظهرها الموم وهي تقاسي الأمرين من تبيكيت الضمير وتندب
حظها قائلة « ويح تنسى ما أشقاها لقد كان الاولى بي أن يقضي
على اللص في تلك الليلة المشؤمة من أن يحملي تلك الخطيئة » .
ثم أشار اليه عرابه أن أنظر فنظر واذا به يرى دار السجن وأمامها
ثلة من الجنود فقال له : « ترى هذا الرجل أنه سفك دماء عشرة
من الابرياء وكان لا محيص له من أن يكفر عن سيئاته بنفسه ولكنك

عجلت عليه بالقتل فحملك جريرة دمه ودم الذين جار عليهم القتل
فهل رأيت الآن نتيجة عملك وما جلبته لنفسك بطيشك ونزقك .
أمامك الآن ثلاثون عاما تقضيها في هذا العالم تضرب بقدمك
في فسيح ارجائه وتعمل جهدك على تكفير ذنبك واذ لم تتمكن من
تكفير ذنوبك قبل انقضاء هذه المدة تنال من الجزاء ما كان سيناله
هذا اللص « فسأله الشاب وقد أكمدلونه وارتسمت على وجهه
علامات الخوف والجزع .

— بربك قل لي كيف أ كفر ذنوبي

فأجاب . ذلك ميسور لك اذا تلافيت من شرور هذا العالم
بالقدر الذي جلبته اليه وبذلك تكفر عن خطيئتك وخطايا
الاص مما

— وكيف السبيل الى محو الشر من العالم

— أنا مرشدك الي ذلك . قم الآن وسر في الارض نحو
المشرق وبعد مسير بضعة أيام تصل الى مزرعة فيها بعض رجال
فراقب ما يعملون ثم أخلص لهم النصح بما تعلمته في سفرك وأتم
مسيرك نحو المشرق أيضا الى أن ينتهي بك المسير الى غابة كذا
وفيها نجد كهفا يسكنه شيخ معتكف فقص على هذا الشيخ كل ما
تراه وتعلمه في طريقك اليه فهو مرشدك الى ما يكون فيه

تكفير ذنبك ان شاء الله

وبعد أن ودع الشاب عرابه سار يتبع مشرق الشمس كما أمره وهو يناجى نفسه بهذه الاقوال : « كيف يتسنى لي معحو الشر من هذا العالم ؟ وكيف يستطيع المرء ذلك دون أن يتحمل خطايا البشر وهل لا دواء الانسانية وشرورها علاج غير ذلك ؟ أخذ يفكر في ذلك طول طريقه عليه يجد حلا لهذه المشكلة ولكن على غير جدوى . وكان قد وصل الى مزرعة كبيرة ورأى القمح فيها ناميا وقد طالت سوتقه ولم يبق على حصده الا القليل ثم لمح على بعد منه عجلا صغيرا يمدو في الحقل وقد طار وراءه بعض الرجال يطاردونه بغية اخراجه من الحقل قبل اتلاف سوق القمح ثم رأى في الطرف الآخر من المزرعة امرأة تمول وتصيح قائلة :

— ياللداهية إنهم سوف يقتسمون العجل فلا يلبث أن يقع صريعا بين أرجل جيادهم . عند ذلك ناداهم ابن العراب بقوله : « ما هذا الحمق تنحوا عن العجل ودعوا المرأة تناديه فلا يكبح جماحه غيرها »

فأصغى الرجال لقوله وتنحوا عنه واقتربت المرأة من الحقل تنادى عجلها بقولها : « الى يا (براونى) الى ياعزيزي الصغير » فوقف العجل قليلا يرفأذنيه نحو الصوت ثم ما لبث أن عدا نحوها

وارتمى في أحضانها فرحاً

فاغتبط الرجال وفرح العجل وعلى هذه الصورة الجميلة انحل
المشكل ففكر الشاب في نفسه يقول : « حقا إن الشر لا يعالج بمثله
وقد دلتني الاختبار أن الناس يزيدون نار الشر اضطرابا كلما حاولوا
إخماده بالجبر والعسف . هاقد أطاع العجل سيده بالمين واللطف »
ففكر في ذلك طويلا دون أن يهتدى إلى حل معقول وكان قد ترك
الحقل متما مسيرة حتى وصل إلى قرية صغيرة وما كاد يصل آخر
القرية حتى أخذ التعب منه مأخذه فتلفت يبحث عن مكان يرتاح
فيه ليلته فرأى منزلا صغيرا في آخر القرية فسار إليه وطلب أن يؤذله
بالميت تلك الليلة فاستقبلته صاحبة المنزل بالترحاب وأجلسته بالقرب
من الموقد ليستدفئ ثم أخذت تتمم ما كانت فيه من تنفيذ أثاث
المنزل وترتيبه وكانت قد أتمت كل عملها تقريبا ولم يبق عليها إلا
تنظيف مائدة الأكل استعدادا ليوم الأحد فمسحتها مسحا جيدا
ثم أحضرت خرقة قدرة تريد تنشيفها وما كادت تضع الخرقة على
المائدة حتى اتسخت ثانية فأعدت غسلها ورجعت تنشيفها بالخرقة
عينها فاتسخت مرة أخرى . وكان ابن العراب يراقب عملها بكل
انتباه وأخيرا لم يتمالك من أن يقول لها : ماذا تصنعين ياسيدتي ؟
فأجابته : « ألا تراني أستعد للغد وقد أتمت كل عمل الأهدء المائدة

فقد أعيانى أمر تنظيفها ، فأجابها : عبنا تحاولين ياسيدتى تنظيف
المائدة بتلك الخرقه القدره انما يجب تنظيف الخرقه أولاً ثم لمسحين
بها وهى نظيفه » فامتثلت لقوله وتم الأمر كما تشتهي السيدة
فشكرته على نصيحته وعند الصباح شكر حسن ضيافتها وسار فى
قصده حتى انتهى الى غابه رأى عند مدخلها بضع رجال يصنعون
أطار العجلات وعند ما اقترب منهم رأهم يدورون حول قطعة من
الخشب دون أن يتمكنوا من احنائها فنظر الى قطعة الخشب فرأى
أنها غير ثابتة فى الكتلة التى يدورون حولها

فكانوا كلما داروا دار الخشب معهم . فتقدم منهم الشاب
وطارحهم السلام ثم سألهم عما يصنعون فأجابوه

« ألا ترى إننا نضع اطارا للعجلات وكثيراً ما حاولنا احناء

هذه القطعة ولكن على غير جدوى » فأجابهم بقوله « كان عليكم
أن تتأكدوا من ثبات الخشب فى الكتلة أولاً ثم تشرعون فى العمل
وإلا تدور معكم كما تدورون » فعملوا بإشارته وتم الأمر على أحسن
حال وأمضى الشاب ليلته معهم وعند الصباح قام يضرب بقدميه
على الارض ثانية حتى وصل الى كلاً من الأرض فيه بعض الرعاة
وقد انتشرت مواشيهـم ذات اليمين وذات الشمال فاقترب منهم فرآهم
يحرقون بعض الأعشاب بفيه اضرام النار ولكن النار ما كانت

لتشتعل حتى كانوا يرمون عليها بعض الاعشاب الندية فتخمد لوقتها
ثم أعادوا العمل بنفس الطريقة فأصابهم من الفشل ما أصابهم في المرة
الاولى فتقدم اليهم الشاب قائلاً :

- أراكم أيها الرفاق تستعجلون بوضعكم الأعشاب الندية قبل
شبوب النار وانما عليكم أن تفتظروا ريثما تشب النار تماما فتضيفوا
اليها قدر ما تريدون من العشب

فعملوا بإشارته وتركوا النار حتى شبت تماما ثم أضافوا اليها
أعشابا أخرى فاشتعلت واستخدموها فيما يريدون. ثم أقام الشاب
بينهم ريثما استراح وقام يتمم مسيره ثانية مفكرا في كل ما صادفه في
طريقه وهو يحاول أن يجد له معنى ولكن لم يهتد الى شيء . وفي
اليوم التالي وصل الى أجمة أخرى وفيها أبصر الكهف الذي يسكنه
الراهب المعتكف فضرب عليه الباب فسمع صوتا ضعيفا يقول :

- من هذا الواقف على الباب

فأجابه الشاب : رجل مجرم أثقلته ذنوبه فجاء يكفر عنها

ففتح الباب وخرج منه شيخ عجوز أحنت الايام قوس ظهره
وسأله عن جلية أمره فأفضي اليه الشاب بكل ما وقع له في
بيت عرابه وأخبره كذلك بما رآه في المزرعة حيث كانت الرجال
تطارد العجل وكيف نصحهم ثم ختم حديثه قائلاً .

- ومن ذلك الوقت علمت أن الشر لا يدفع بالشر ولكن
لم أهد حتى الآن الى الطريقة المثلى التي يجب اتباعها لدفع الشر فهل
لك ياسيدى أن ترشدنى لذلك»

فأجابه الراهب :

- أمض فى حديثك يابنى وأخبرنى بما رأيته أيضا.

فعاد الشاب الى حديثه وأحكى له مارآه فى بيت المرأة وقص
عليه أمر الرجال الذين كانوا يصنعون أطار العجلات ثم أخبره بما
وقع له مع الرعاة

كل ذلك والراهب مطرق برأسه يصغى اليه جيدا وعند انتهاء
الحديث دخل الى كهفه وعاد ثانية ويده فأس صغير كالذى يستعمله
الخطابون ثم قاده الى وسط الأجمة وأشار الى شجرة هناك ثم قال:
اقتلع هذه الشجرة من أصولها ثم اقطعها بالفأس الى قطع ثلاث .
ففعل ابن العراب ما أمره الراهب وعند انتهاء العمل ذهب الراهب
الى كهفه ورجع اليه بقطعة خشب مشتعلة وأمره أن يحرق بها القطع
الثلاث حتى تصير كلاً منها كالفحمة السوداء وبعد أن فعل ذلك أيضا
أمره بفرس القطع المحروقة فى الارض حتى النصف

وعند انتهائه من العمل وضع الراهب يده على كتف الشاب

وخاطبه بقوله :

« أتري هذا النهر الصغير عند سفح الجبل عليك أن تنقل منه الماء بفمك لسقى هذه الاعواد الثلاث . اسق العود الاول كما علمت المرأة وأسق الثاني كما أشرت على صانعي العجلات والثالث كما أشرت على الرعاة واستمر على سقيها وتمهدها حتى ترى أن هاته الاعواد الثلاث تنمو وتينع وتصبح كل منها شجرة تفاح صغيرة عند ذلك تكفر عن خطيئتك وتعلم في الوقت نفسه كيف يمكن اقتلاع بذور الشر من جوانب الانسان »

وعندما انتهى الراهب من حديثه قفل راجعا الى الكهف وترك الشاب غارقا في بحار التفكير يضرب اخماسا لأسداس ويقلب وجوه الرأي عساده يهتدى الى معنى لكل ما رآه وأخيرا لم يردأ من اطاعة أمر الراهب اطاعة عمياء كما أوصاه عرابه فصار ينقل الماء بفيه ويسقى الاعواد طول يومه حتى أعياه التعب وأخذ منه الجوع كل ما أخذ فسار الى الكهف ليطلب منه ما يسد به الرمق ولكنه ما كاد يدخل الكهف حتى رأى الراهب جثة هامدة فهاله الأمر وأسقط في يده لا يدري ما يصنع وأخيرا أتمالك روعه وأخذ ينقب في أطراف الكهف حتى اذا أصاب شيئا من الخبز الناشف أكله ونام ليلته بالقرب من جثة الراهب وعند الصباح قام الى فأسه وحفر قبرا للراهب بالقرب من الكهف وبينما هو في عمله رأى

جمعا من الناس جاءوا ليزوروا الراهب ومعهم بعض الزاد كما دعتهم فأخبرهم بموته فأسفوا عليه وعاونوه في دفنه في الحفرة التي أعدها له من قبل ثم ودعه الحاضرون بعد أن تركوا ما معهم من الزاد وقد وعدوه بزيارته من حين لا آخر كما كانوا يزورون ساكن الكهف سلفه ومن ثم اشتهر أمره بين سكان الجهات المجاورة للغابة بأنه لا ينفك عن نقل الماء بقمه من النهر حتى الكهف رياضة للنفس وكبحا لجماح الهوى فتقاطروا اليه من كل صوب للتبرك به ومعهم كثير من الهدايا الثمينة فكان يبقى لديه الضروري منها ويوزع الباقي على الفقراء والمساكين . وكان يمضي نصف يومه في نقل الماء وسقى الأعواد والنصف الآخر في استقبال زواره العديدين

مضى عليه حولان لم ينقطع أثناءهما يوما واحدا عن نقل الماء وسقى الأعواد ولكنها كانت على حالها السابق لم تتغير مطلقا . وبينما كان ذات يوم جالسا في كهفه سمع وقع حوافر جواد وصوت انسان يغني فقام الى الباب ليستطلع الامر واذا به يرى شابا مفتول العضل عليه سما الشراسة والشر فسأله ابن العراب عن نفسه وعن وجهه قصده فأجابه الرجل وقد أمسك بزمام فرسه يوقفه :

— أنا لص أقطع الطريق على الناس وكما قتلت انسانا كلما ازددت ابتهاجا فأردد على الدوام إلا فأشد التي تردد صداها هذه

« الجبال »

ففكر ابن العراب في نفسه يقول:

« هذا رجل قد جبل على الاجرام وطبع على محض الشر فكيف السبيل الى إرشاده إنه من السهل ارشاد أولئك الذين يأتون الى بمحض ارادتهم يعترفون لي بذنوبهم ويطلبون الصفح والغفران ولكن كيف الطريق الى نزع ماكن في نفس هذا اللص من الشر وهو يفتخر بذنوبه ويتباه عجباً بما يقترفه من الآثام » ثم فكر ثانية وقال في نفسه « رباه كيف العمل ؟ فقد يأوى هذا اللص الى جهة قريبة من الكهف فيوقع الرعب في قلوب زائريه وبذلك تضع الثمرة فلا أدري كيف أعيش بعدها » ثم التفت الى اللص وخطبه قائلاً .

— « اعلم يا هذا أن الناس يحضرون عندي يلتمسون التوبة والغفران باعترافهم عن ذنوبهم فلا يفتخرون بها مثلك فاقلم أنت أيضا عن شرورك وآثامك والتمس التوبة قبل فوات الفرصة ان كنت ممن يخافون الله . وان لم تك ثمة ندامة في قلبك فلا تقرب هذه الجهة لان ذلك يوقع الرعب في قلوب الذين يفتدون على فان لم ترعو فان الله كفيل بمقابك فاجابه اللص :

« أنا لا أخاف الله ولا أصفى لهديانك اذ ليس لك على أقل سلطان. أنت تعيش بزهدك وأنا أعيش باللصوصية فكلانا يعمل ليعيش ويؤذن فالغاية واحدة وان اختلفت الوسطة. وحرى بك أن تدخر ما في نفسك من النصائح للعجائز اللواتي يحضرن مجلسك أما أنا فلا أخدع بزخارف الاقوال. ولكن بما أنك ذكرتني بعقاب الله فلا يشرق صباح الغد حتى أكون قتلت نفسيين ذكرى لهذه النصيحة. وكان بودى أن أقتلك ولكن لا أريد ذلك الآن والويل لك ان اعترضت طريقى بعد اليوم »

ما كاد اللص يتم حديثه ووعيده حتى لوى عنان فرسه وغاب عن الانظار ولم يسمع له خبراً بعد ذلك فاقام ابن العراب في كهفه ثمانية أعوام أخرى في هدوء وسلام .

جلس ابن العراب في كهفه ذات مساء بعد أن فرغ من سقي الاعواد كما دته مترقباً قدوم زائر ولكن لم يحضر اليه أحد ذلك المساء فاكتأب لذلك واستولت على نفسه الهموم والا حزان وأخذ يفكر في معيشته الجديدة في الكهف ثم تذكر قول اللص وكيف عاب عليه التعيش بالزهد والمسكنة فأنب نفسه ورجع يوبخ ضميره .
قائلاً :

- ويح نفسي ما أشقاها ! جئت هنا لا أكفر عن خطيئتي وإذا
بي أضعف ذنوبي وآلامي . نعم قد صدق اللص في قوله : كلانا
يعمل ليعيش أنت بزهدك وأنا بسفك الدماء وقتل نفوس الأبرياء
ليست هذه هي المعيشة التي أتمسك بها لا أكفر عن سيئات نفسي
ولم تكن هذه الخطة التي أنتهجها كقيلة بفلسل آلامي بماء الطهر والتوبة
فقد كان علي أن أكتفى باليسير من الخبز واسكن ملك الغرور علي
نفسى فأصبحت أرتاح بمدح الناس إياي بالزهد والتقوى وها أنا
ذا قد استولى علي الهم لاني لم أجد بين يدي من يتقرب الي بلمدح
والثناء . كلا . كلا ! علي أن أفر من وجه الناس وأتمس المعيشة في
ركن آخر من هذه الغابة حيث لا يصل الي أحد منهم .

وما وصل من حديث نفسه الي هذا الحد حتى قام من مكانه
وعلى وجهه أمارات العزم الصادق ثم احتمل سلة الخبز وأمسك
محراثه يمينه ليحفر لنفسه كهفا آخر في ركن مهجور من الغابة
وفما هو في طريقه قابله اللص ففرع منه ابن العراب وولى الادبار
الآن اللص أسرع فأمسك به وسأله عن قصده فأجابه إنه يريد
اعتزال الناس في ركن من الغابة فعاد اللص وسأله :

.. ومن أين لك ما تتبلغ به إذا أنت اعتزلتهم؟

فقال : « ذلك لايهمني بل أعيش بما يقدره لي رب العالمين »

فسكت اللص ثم أعمل بمهمازه في الجواد واختفى بين أشجار الغابة .

فقال ابن العراب في نفسه :

- ما على لو نصحتة مرة ثانية فإنه اليوم ألين عـربكـه من ذى

قبل . ثم صاح بأعلى صوته :

- « ما زال أمامك متسع من الوقت للتوبة والندامة فارجم عن

غيبك يا هذا » فرجع إليه اللص مشهرا خنجره يريد قتله ففر ابن

العراب من بين يديه وأخذ يمدو في الغابة بلاء فوجهه فوقف

اللص عن ملاحقته واكتفى بقوله :

- هذه هي المرة الثانية وأنت تقف في وجهي أيها المعجوز

فحذار فانك لاتفت من يدي في المرة الثالثة »

وفي مساء ذات اليوم عند ما ذهب ابن العراب يسقى الاعواد

كمادته كانت احداها وهي الأولى موضع إعجابـه واندهاشه لأنه

رآها قد اخضر عودها ودبت الحياة فيها واقترت عن شجرة تفاح

صغيرة . فأشرق جبينه وعاد إليه الأمل وقد أيقن أنه سائر في سبيل

التكفير عن خطاياہ . ونظر ذات يوم الى السلة التي احتملها من

الكهف السابق واذا بها فارغة ليس بها شيء من الخبز فتسلل الى

الغابة يبحث عن نبات أو ثمر يعيش عليه اذا به يرى سلة أخرى من

الخبز معلقة على احدى الأضراس فأخذها وعاد الى كهفه وعاش عليها مدة من الزمان لا يعكر صفو حياته الا وعيد اللص اذ كلما تذكر تهديده ترتجف أعضاؤه فرقا، خوفا من أن يقضى اللص عليه قبل تكفير ذنوبه الا أنه فكر في نفسه ذات يوم فقال :

- « أنا أجرمت ومع ذلك أهاب الموت ألا يمكن أن تكون ارادة المولى أن أكفر عن خطيئتي بالموت »

وما وصل من مناجاة نفسه الى هذا الحد حتى سمع صوت اللص يصخب ويلعن كمن يخاطب شخصا آخر فقال في نفسه « إنما الخير والمشر يد الله » وقام لوقته يريد مقابلة اللص فرآه ممتطيا فرسه وقد أردف خلفه رجلا آخر مكبل اليدين والرجلين يوسمه لسكا وضربا ويستنزله عليه اللعنات طول الطريق . فوقف ابن العراب في وجهه وصاح به .

- الى أين أنت ذاهب بهذا الرجل ؟

- هذا ابن أحد التجار أبي أن يعترف لي أين أموال أبيه ولكني

سوف أذيقه كل صنوف العذاب حتى يقربني بالمسكان

ثم أعمل المهماز في جواده يريد السير ولكن ابن العراب كان

ممسكا بالفرس بكل قوته فلم يدعه يمر وقال له بلهجة الغاضب :

- دع هذا الرجل وشأنه .

عند ذلك استشاط اللص من الغضب ورفع يده يريد لطمه وهو يقول :

« أتريد أن تذوق طعم العذاب الذى أعددت له هذا الرجل ؟
تنح عن طريقى والا قتلتك شر قتلة »
ولكن ابن العراب لم يتزعزع من مكانه بل وقف ثابت الجأش وأجاب اللص بقوله .

« لا أدعك تنقل خطوة واحدة دون أن تمر على جثتى
وتطأها بسنابك جوادك فانا لا أخاف سوى رب العالمين فهو الذى
يثبت قدمى الآن لا جاهد فى سبيل الخير فلتكن مشيئة الله »
فأطرق اللص واجمأ ثم أخرج سكيننا صغيرا قطع به قيود الشاب
ونظر الى الرجل وابن العراب وهو يقون :

« أغربا الآن عن وجهى وحذار أن تقف فى طريقى مرة
أخرى أيها العجوز »

فقفز ابن التاجر وانطلق يعدو فى الغابة. أما اللص فكان على
وشك أن يملو جواده ثانية حينما أمسك الراهب بطرف ثوبه
وأخذ فى نصحه وارشاده وكان اللص فى هذه المرة مطرقا لا ينبس
ببذت شفة إلا أنه عاد فمز رأسه ثانية وركض بجواده نحو الغابة

وفى اليوم التالى لهذه الحادثة وجد الراهب أن الحياة دبت

في العود الثاني ونمت شجيرة تفاح أخرى بجانب الأولى
مرت على هذه الحادثة عشرة أعوام وقد جالس ابن العراب
ذات يوم في كهفه بطمأنينة وسلام وقلبه يطفح بشرا وسرورا ولا
يعكر صفوه هنائه خوف أو طمع وكان يفكر في نعم المولى على عباده
وكيف ان الله جلت قدرته هيا لهم كل ما فيه غيبتهم وسعادتهم
ونتمهم هم الذين يوردون أنفسهم موارد البؤس والشقاء ويعملون على
تعمير صفو الحياة بأطعامهم وشرورهم ثم انتقل بفكره الى الانسان
وما جبل عليه من شر والى الحياة الاجتماعية وما فيها من أمراض
والآلام فقال في نفسه :

« عار على الأبرح مكاني هدايل على أن أسعي في الارض
أرشد الناس الى الطريقة المثلى لنزع الشر من بين جوانبهم !!
وبينا هو غارق في هذه الهواجس اذا باللص يمر من أمامه
فتركه يمر بدون أن يتعرض له بل قال في نفسه .

« ان الكلام مع مثله لا يجدى نفعا لانه لا يفقه لما أقول معنى »
ولكنه ما لبث أن غير عزمه وقام مسرعا خلف اللص فرآه مغبر اللون
مطرق الرأس خاشع البصر فأشفق عليه ووضع يده على ركبته
وخاطبه قائلا :

« كن رحما بنفسك يا أخى . انك طالما عشت في الارض فسادا

وأهلكت نفوساً بريئة وكنت شراراً وبالاً على الإنسانية ومع ذلك
فإن الله رحيم بعباده يقبل توبة التائب ويعفو عن أساءة المسيء فلا
رجعت عن ضلالك وأشفقت على البقية الباقية من حياتك»

فوجم اللص لا يتكلم ثم عاد يريد السير ثانية وهو يقول
«دعني وشأني» ولكن ابن العراب لم ييأس بل طفرت من عينه
دمعة سخينة فمسحها بطرف ردائه وأقبل على إرشاده ونصحه فنظر
اللص إليه طويلاً ثم رمى نفسه عن جواده وركع امامه يقول .

— ها أنت ياسيدي قد ملكت على نفسي وظفرت بها أخيراً
بعد أن قاومتك عشرين عاماً فافعل بي ما تشاء فإني رهن إشارتك
إذا لاطاقة لي بأكثر من ذلك . قد استغفرتني الغضب عند ما وقفت
في طريقى تريد نصحى وإرشادى في المرة الأولى ولكن ما كنت
تعزل الناس وتزهد في أعطياتهم حتى أخذت أقدر أقولك ونصائحك
حق قدرها إذ علمت أنك لم تنصحني لغاية أو فائدة وإنما قلت ما
قاتمه لمحض الخير والاحسان . ومنذ ذلك اليوم قدرت جهادك حق
قدره وسافنى عامل الإعجاب بك الى احضار الخبز اليك في سلة
كنت أعلقها على غصن احدى الاشجار القريبة من كهفك

فتذكر ابن العراب عند ذلك تلك الحادثة التي مرت به عند
ما كان بضيافة المرأة وكيف انها لم تتمكن من تنظيف المائدة الا

بعد أن غسلت تلك الخرقه التي كانت بها، كذلك هو لم يتمكن من تطهير قلب غيره الا بعد أن طهر ذات نفسه ثم استطرد اللص حديثه قائلاً : ولكن حتى ذلك الوقت كنت معجبا بك فقط ولم تؤثر نصائحك في نفسي تأثيرها المطلوب الا بعد ما علمت انك لاتهاب الموت « فتذكر ابن العراب حينئذ ما رآه من أمر الصناعات الذين كانوا يحاولون احناء القطعة الخشبية وبانهم لم يتمكنوا من ذلك الا بعد أن ثبتوا الكتلة في مكانها تمام الثبات فعلم أن نصائحهم لم تؤثر في اللص ذلك التأثير البليغ إلا بعد أن طرح عن نفسه رداء الخوف من الموت وأشعر قلبه حلاوة الايمان الصادق « ثم ختم اللص حديثه قائلاً : « ولكن لم يحترق قلبي بنار التوبة والاخلاص الا حينما رأيتك تشفق على وتبكي لأجلي »

عند ذلك أخذ ابن العراب بيده وذهب به حيث الاعواد الثلاثة أيضا فأشرق شعاع الامل بين جوانب نفسه وعلم أن الله قد تقبل توبته وغفر خطيئته وتذكر كيف أن الرعاة لم تتمكن من احراق الاعشاب واضرارها الا بعد أن ذكت النار تماما فعلم أن اللص لم تتم توبته الا بعد أن ذكت نفس مرشده تماما ، عند ذلك قضى نحوه قرير العين هنيء البال بعدما أفضى الى اللص بكل ماعله وتعلمه ثم أوصاه بإرشاد الناس الى طريق الخير بالتقوية الصالحة والمثل الطيب.

مكيدة شيطانية

وأما الخمر فهي تزيل عقلا
فتحت به مغالِق مبهمات
ولو ناجتكَ أقداح الندامى
عدت عن حملها متهدمات
تذيع السر من حر وعبد
وأعرب عن كنانين معجمات
فان هلكت خروسك ام ليلي
فأنا من صحابك والذات
فمنك تعود أبنية المعالى
وأطلال النهى متهدمات
وقديضحى صحابك اهل سجن
وتلقين الكؤوس محطات

« للمعري »

في صباح ذات يوم خرج قروى من كوخه الحقيير يحمل تحت
بطه فطور ذلك اليوم موليا وجهه نحو الحقل الذى ما كاد يصل

اليه حتى خلع معطفه ورماه تحت إحدى الشجيرات بعد أن لف فيه مامعه من الخبز . ثم شرع في العمل . وبعد هنيهة أنهكه الجوع وأضنى التعب جواده . فأطلق سراح الجواد وجلس هو لياً كل ما أعده للفطور ولما تفقد الخبز لم يجده بين طيات ثيابه فأخذ يقلب المعطف بين يديه ويدقق النظر في كل جزئياته . ولكنه عشا كان يحاول اذ أن الشيطان كان قد سبقه الى الشجيرة . وسرق ما في المعطف من الطعام ثم جلس منتظراً صخب القروي ولعنائه على سارق الخبز الا أن فآله قدخاب لأن القروي مع ما داخله من الأسف لم يتأثر كثيراً لفقد الطعام بل اكتفى بقوله : « ما على لوصبرت فان الجوع ليس بقاتلي وربما كان الآخذ في حاجة الى ذلك الخبز فليهنأ به » قال هذا القول وذهب تواء الى بئر قريب منه حيث أطفأ ظمأه وارتاح قليلا من وعشاء العمل ثم عاد فأمسك بعنان جواده واستأنف العمل ثانية :

أما الشيطان فقد استاء من عمل القروي اذ رآه أعقل من أن يقع في الخطيئة فأسرهما في نفسه وعزم أن يخبر رئيسه بالامر . وبالفعل ذهب من وقته الى ابليس وقص عليه الحكاية وكيف أن القروي لم يعبأ بفقد الخبز ولم يسخط على آكله بل تمنى له الهناء والسرور ، فما كاد ابليس يسمع ذلك حتى غلى مبرجل حقهده وانتهر

تلميذه قائلًا : « انما اللوم في ذلك راجع عليك لانك لم تقم بمهنتك كما يجب واعلم ان القرويين اذا ابتدأوا يتهجون على هذا المنوال واقتضى ائرم في ذلك زوجاتهم فالويل لنا نحن معاشر الالباسة فالامر خطير لايجمل بنا أن نتغافل عنه فانكص على عقبيك سريعا وأصلح خطأك هذا وإن لم تنتصر على ذلك القروي الساذج في ظرف ثلاث سنين فسوف أريك كيف يكون جزاء الالهال »
فعاد الشيطان الى الأرض مسرعا وهو ينتفض فرقا وقد تقطعت نياط قلبه من تهديد الرئيس ، وأخذ من وقته يفكر في حيلة يوقع بها ذلك المسكين في حباله ، واخيرا اهتدى الى مشروع وجدده كفيلا بنجاحه فتزيا بزى أحد العمال وتمكن من أن يدخل في خدمة القروي .

وفي عامه الأول نصحه بأن يبذر حبوبه في أرض رطبة فعمل القروي بنصيحته وكان الجو من حسن حظه جافا فأتجت الارض محصولا جيدا فتمكن من ملء مخازنه وأصبح لديه كميات وافرة من القمح تزيد عن حاجاته . وفي عامه التالي عاد اليه الشيطان ينصحه بأن يبذر حبوبه على ربوة من الأرض ثم جاء وقت الحصاد وكان الصيف رطبا فاستفاد القروي من النصيحة وتوفر لديه شيء كثير من القمح يربو عما جناه في عامه السابق فخار في أمره ولم يدر ماذا يصنع

بكل ذلك القمع الكثير فوسوس اليه الشيطان أن يستخرج منه نوعا من الخمر ففعل، وكان الخمر المستخرج قويا شديد التأثير ففسر بهذا الاكتشاف وأخذ يشرب منه هو وزوجته وأهدى الى أصدقائه الشيء الكثير. عند ذلك ذهب الشيطان الى رئيسه فرحا مستبشرا وقص عليه ما فعله لاغواء القروي فقام ايليس مسرعا ليشهد الامر بنفسه ويتحقق صدق مقاله ولما وصلا الى منزل القروي وجدا أن صاحب المنزل يستعد لحفلة ساهرة دعا فيها كل جيرانه الاعزاء ثم رأيا وفود المدعوين تقبل الى المنزل زرافات ووحدا، وصاحبة الدار قائمة بخدمةهم تدور عليهم بالاواني، اذا بها قد تعثرت فوقمت الاواني من يدها وسال الخمر على الارض فاحتدم زوجها غضبا وصاح بها يقول « ما الذي دهاك أيتها المسراء حتى أرهقت هذه الخمرة اللذيذة على بساط الغرفة . أظننت أن ما بين يديك من ماء البئر حتى أخذت في اتلافه واسرافه» وما كاد الشيطان يسمع هذه الكلمات حتى غمز رئيسه قائلا : « أسمع أنت كلام ذلك القروي الساذج الذي لم يهتم لفقد كسرة الخبز» وبينما كان القروي ينتهر أمرأته ويلومها على فعلتها اذا بقروي فقير دخل عليهم متطفلا واستوى جالسا على المائدة ينتظر اكرام صاحب الدار ولما طال به الجلوس تملل صاحب المنزل من جلوسه وتتم يقول: « أنا ليس في وسعي أن أقدم

شربا لكل من يتطفل على موائدنا ، فسمع ابليس هذه الكلمات وسرفى نفسه بهذه النتيجة الا أن تلميذه قال وهو يتسم : انتظر قليلا فسوف ترى ما هو أعجب . فعلا ماكاد يتم قوله هذا حتى كان القوم أخذتهم نشوة الخمر فأصبحوا يخادعون بعضهم البعض بالفاظ ملؤها الملق والرياء . عند ذلك قال ابليس : « اذا كان بعض الخمر يجعلهم على هذه الحال يروغون كالثعالب ويتملقون بعضهم البعض ولكنك سوف تراهم عقب الكأس الثانية كالذئاب المفترسة ينهشون لحوم بعضهم البعض » فما أتم الشيطان هذه الكلمات حتى كان الشراب يدور على القوم ثانية ، ثم ارتفعت من بينهم دواعى الحشمة وأصبحوا يتبادلون وحشى الكلام وقبيح الألفاظ ثم أدى بهم الأمر الى المضاربة فالملاكمة فتلا لأوجه ابليس بشرا وهنا تلميذه بذلك الفوز الباهر قائلا : « هذه هى الخطوة الاولى فى سبيل النصر » فأجابه تلميذه : « انتظر حتى النهاية ترما هو أغرب فانهم الآن كالذئاب يكاد أحدهم يفترس صديقه ولكنك سوف تراهم كالخنازير عقب الكأس الثالثة »

عندها دارت الكؤوس عليهم مرة ثالثة فعلت أصواتهم وزاد صخبهم وأصبح كل منهم يلعن ويشتم بلا سبب ومن غير داع . وبعد برهة وجيزة انقرط عقد جمعهم وأخذوا ينسلون من مكان

الدعوة جماعات ووحدا نأيترنحون سكر اويتمايلون ذات اليمين وذات الشمال ، تم ذهب المضيف أترم ليشيمهم ولكنه ماكاد يخطو بضع خطوات حتى تمثر في مشيته فوقع في حفرة مملوءة بالأوجال وتلطح بها من قمة رأسه الى أخصص قدميه ، فازداد ابليس لهذا المنظر بهجة وسرورا والتفت الى تلميذه يقول « لله درك فلقد كان نجاحك باهراً وفوزك مبينا ولكن خبرني كيف صنعت هذا الشراب فلا رب أنك أضفت اليه بضع نقط من دم الثعالب وهذا ما حدا بهم لان يروغوا ويتملقوا بعضهم البعض في الكأس الاولى ، ثم أظن أنك أضفت اليه بعضا من دم الذئاب اذ كان نتيجة ذلك أنهم أصبحوا كالذئاب العاوية . وأخالك أتممت العمل بوضع نقط من دم الخنازير حتى أصبحوا يماثلون الخنازير عقب الكأس الثالثة فقال الشيطان :

- كلا فإنك لم تصب كبد الحقيقة فليست هي الطريقة وكل ما في الامر أني بذلت ما في وسعي لان أجعل ذلك القروي يملك حبوا أكثر مما يحتاج اليها فالانسان يجول في عروقه دماء الحيوانية على الدوام وتظل هذه الغريزة كامنة في نفسه طالما كان يملك من حطام الدنيا أقل من ضرورياته . يدلك على ذلك ما أظهره القروي عندما تحرشت به في مبدأ الامر ولكنه ماكاد يتوفر لديه أكثر مما يحتاج اليه حتى أعماه الغنى وتمادى به الغرور فأخذ يبحث عن

دواعى الملاهي والسرور وهنا سنحت الفرصة لاغوائه فأخذت
بيده الي طريقة من طرق الغواية اذ أرشدته الى صنع الخمر فاستلذها
المسكين لسوء حظه وشربها عذبة سائغة فكان في ذلك كالساعي الى
حشفه بظلمه فانه ما كاد يكفر بأنعم الله حين اعطيته خمره تذهب
برشده حتى ظهر ما كمن في نفسه من تلك الدماء الخبيثة ، دماء
الحيوانية ، فأصبح وحشا ضاريا بعد أن كان بشراً سويا وهو يظل
كذلك وحشا مفترسا بعيدا عن مناهج الانسانية طالما يعاقر تلك
المادة الدنسة



ثلاثة أسئلة

أراد أحد الملوك مرة أن يقف على اجابة ثلاثة أسئلة جالت بمخاطره وظن أنه إن تم له ذلك فلا يكون للفشل حليفه قط في أى مشروع يأخذ على عاتقه القيام به وما كاد هذا الفكر يستقر في فؤاده حتى أعلن في طول البلاد وعرضها أن من يجيب الملك على أسئلته الثلاثة الآتية ينال جائزة قيمة أما الاسئلة فهى :

(١) كيف يعرف الانسان الوقت المناسب للشروع في

أى عمل ؟

(٢) من هم الذين يجب الثقة بهم أو الابتعاد عنهم ؟

(٣) كيف يتسنى له معرفة أهم الاشياء التى يشغل بها ؟

وما كاد هذا يذاع في المدائن حتى تقاطر اليه العلماء من كل

صوب الالانهم ذهبوا في اجاباتهم مذاهب شتى .

فقال أحدهم اجابة عن السؤال الاول : اذا أراد الانسان أن

يعرف حقيقة الوقت المناسب لبدء كل عمل فعليه الا أن يخطط

جدولا يكتب فيه أسماء الايام والشهور والسنين محسوبة مقدما

ويواظب تماما على العمل به وبذلك يمكنه أن يؤدي كل عمل في

وقته المعين . وقال آخرون : أن من الحال لاي انسان أن يتنبأ بالوقت المناسب لكل شيء ، وإنما الواجب عليه أن يراقب بكل دقة وانتباه مجرى سير الاحوال التي تحيط به ومتى علم ذلك صار من السهل عليه معرفة أى الأشياء أكثر اهمية فيبدأ بها في وقتها . إلا أن بعضهم اعترض عليهم فقال مهما يكن الملك يقضاه ، اعياها لكل ما يحدث حوله فإنه لا يتوصل لمعرفة ذلك إلا بعقده مجلسا يتضمن كبار العلماء والعقلاء ليساعدوه بأفكارهم على تحديد الوقت المناسب فرد عليهم آخرون بأن هناك كثيراً من المسائل التي يجب البت فيها في الحال ولا يمكن أرجاؤها حتى ينظر فيها المجلس . فالطريقة المثلى لمعرفة ذلك هو التنبؤ بحوادث المستقبل وبما أن هذا لا يفقهه إلا السحرة فالاجدر بالانسان مشاورتهم في الامر

وكان ما أصاب الاجابة عن السؤال الثاني من الاختلاف لا يقل عما أصاب ساقه فقال احدهم إن أنفع الناس للملك وأجدرهم بثقته هم وزراءه ومستشاروه وقل آخرون الكهنة وروساء الدين وقال ثالث نطس الاطباء وقال رابع إن الحارين وطائفة المجاهدين هم الأكثر ضرورة للملك دون سواهم

أما السؤال الثالث فكان نصيب الاجابة عنه من تباين الآراء كذلك ما لا يقل عن سابقه فأجاب بعضهم بأن أنفع الأشياء للملك

هو العلم وقال ثان المهارة في الفنون الحربية وقال غيره الاشتغال بالامور الدينية .

ولما رأى الملك اختلاف العلماء وتباين أفكارهم لم يقتنع باجابتهم فلم ير أحدا منهم جديراً بالجائزة المعدة . ولما لم يجد الملك ضالته المنشودة في من وفد الى حضرته من العلماء وكانت رغبته تزداد في الوقوف على أجوبة صحيحة لاسئلته الهامة عمد الى المناوضة مع ناسك مشهور بوافر عقله وغزير حكمته فقام لوقته وارتدى ملابس بسيطة لان هذا الناسك لا يقابل الا العامة ثم سار نحو الغابة التي اتخذها ذلك العابد مسكناً لا يبرحه وما دنا من صومعته ترجل عن جواده وذهب اليه وحيدا تاركاً وراءه جنده وحراسه

قرب الملك منه فوجده يحفر في الارض أمام كوخه فلما وقعت عيننا الناسك عليه حياه واستمر في عمله وبالنسبة لضعف جسمه ونحو له كان كلما جرف بجرفته قطعة من الارض علت زفراته وتصعدت أنفاسه فتقدم نحوه الملك مخاطباً اياه « انى أتيت اليك أيها الناسك العاقل لمتسامنك الاجابة عن ثلاثة أسئلة ، فهلا توليني سرورا بتحقيق أمينيتي . » فأصغى اليه الناسك الا أنه لم يجبه بكلمة واحدة واستأنف الحفر . فزاد الملك قائلاً « اني لا أخالك قد تعبت الآن فأذن لي بالاشتغال برهة حتى تستعيض بعض قوتك »

فشكره الناسك وأعطاه المجرفة وجلس هو ليستريح - وبعد أن جرف الملك مرتين توقف وأعاد أسئلته ثانيا فلم يمره الناسك أقل انتباه ولم ينبس ببنت شفة وقام لوقته ومديده للمجرفة يطلبها من الملك إلا أن هذا أبى أن يعطيه أيها واستمر في الحفر حتى مضت ساعتان وابتدأ قرص الشمس أن يختفي وراء الأشجار واذ ذاك توقف الملك عن العمل وقال للناسك : « انى قصدتك أيها الحكيم لتجيبني على أسئلتى فان لم يكن لك علم بها فاخبرنى حتى أنصرف وأعود من حيث أتيت » فقال الناسك بلهجة تدل على الاهتمام « التفت . ألا ترى رجلا مقبلا يعدو نحونا ! ها هو يجب أن نعرف أولا من هو » فالتفت الملك فرأى رجلا ذا لحية طويلة يتقدم مسرعا نحوهما واضعاً كتفا يديه على بطنه والدم يسيل من تحتها

ما كاد هذا الغريب يصل حيث يجلس الملك حتى خر على الأرض يصرخ من الألم وبين أنات متواصلة ففك الملك والناسك ثيابه الممزجة بالدماء والفياجرحاً بليغا يتدفق منه الدم فعنى به الملك وضمده جرحه بمنديله ومنشفة كانت عند الناسك . ولكن مع كل هذا لم تقف حركة خروج الدم لذلك كان الملك نفسه يزج العصاة ويمتص الدم بمحرارة زائدة ويفسل الجرح مرات عديدة ثم يعيد اليه الضمادة ثانية وهكذا حتى انقطع الدم وانتعش الرجل وطلب جرعة ماء فاحضر

الملك له الوعاء وأسقاه منه كفايته وفي ذلك الوقت مالت الشمس الى
المغرب وأقبل الليل بنسجانه الباردة فحمل الملك والناسك الجريح وأدخله
الكوخ وما كادا يوسدانه الفراش حتى أطبق عينيه واستغرق في سبات
عسيق . أما الملك فقد أعيته مشقة العمل وانكهه تعب الحركة فجثا
لوقتة عند مدخل الكوخ واستسلم أيضا لنوم هادىء طويل .

مضت تلك الليلة ونام الملك فيها ملء جفنيه وما استيقظ في
الصباح أراد أن يعيد الى ذاكرته حوادث الليلة الماضية إلا أنه قبل
أن يتذكر أين هو ؟ ومن ذلك الغريب النائم على الفراش الناظر
اليه بعينين براقيتين سمع صوتا ضعيفا يقول « ساحنى » فلم أنه
صوت ذلك الغريب الجريح فالتفت اليه وقال يلوح لى أن ليس
بيني وبينك سابق معرفة فعلام تطلب مساحتى ؟ » فقال نعم إنك
لا تعرفنى ولكنى اعرفك حق المعرفة . فأنا عدوك الألد الذى حلف
لينتقم منك لأنك أعدمته أخاه واغتصبت أملاكه وقد علمت
بعجيتك الى هنا منفردا فعزمت على قتلك عند أوتك ولكنى عندما
رأيتك لم يرجع وقد انقضى اليوم خرجت من مكمنى لافتش عنك
عسى أن التقى بك واذا بحراسك قد عرفونى فأطلقوا على بعض
غداراتهم وأصابونى فهربت من أمامهم والدم يتدفق والآلام تزداد
حتى رماني الله بين يديك فضمدت جرحى وعطفت على . فما أظهر

قلبك وأرق عواطفك ! يارباه انى أتيت لاقفلك وليكنك أنفذتني
من الموت وبعثت فى الحياة ثانية فلا أشكرنك ما حيت ولن أنسى
هاتيك الايادى البيضاء مادام فى عرق ينبض ولى لسان ينطق
ولا كورن لك الخادم المطيع والعيد الأمين مادمت أستشق نسما
الحياة. وسآمر أولادى أن يقتفوا أثرى من بعدى فنوقف حياتنا
جميعا لخدمة الملك ء

ولا تسأل عن سرور الملك وقتئذ فمقد كان عضيها ولا شك فى
ذلك . فان الصلح الذى عقده مع عدو من ألد خصومه بدون أن
يبذل فى سبيله أقل مجهود يعد حقا صفقة رابحة له . كيف لا وانه
بذلك الصلح اجتاز أسباب البغضاء التى أضرت فى فؤاد ذلك
العدو نار العداة واقتمتع بدور الشحنة التى نبتت فى قلبه على
توالى الزمن وأقام مكانها فى رحبة ذلك القلب نفسه قصور المحبة
تظللها أشجار الطاعة ودوحات الاخلاص . ثم أمر طبيبه الخاص أن
أن يعنى بالجريح عناية تامة ووعدته برد كل أملاك الضائعة . وبعد أن
استأذن الملك من الجريح بالانصراف عزم على الرحيل إلا أنه ودأر
يقابل الناسك لأخر مرة عسى أن يهديه الى ضالته المنشودة
فوجده يبذر الحب فى الارض فلما قرب منه قال له « أتوسل اليك
للمرة الأخيرة أن تجيبني على أسئلتى حتى يطمئن بالى وتكون قد

أسديت لي جميلا لا أنساه « فرفع الناسك اليه بصره وقال «إنك
لقد أجبته تماما على كل أسئلتك « فدهش الملك وقال متعجبا « كيف
ذلك وماذا تعني ؟ فرد عليه الناسك بقوله : « ألم تر أنك لو لم تعطف
على بالامس ولم ترحم شيخوختي وضعفى وتركتنى أقاسى آلام
العمل وحدى فان عدوك كان لابد قاتلك واذ ذلك كنت تمض
أصبع الندم حسرة على عدم بقائك معى . فاعلم اذن أن أئمن أوقاتك
هو وقت اشتغالك بالحفر وأنفع رجل وقتئذ هو أنا واسداؤك الخير
هو أهم ما اشتغلت به . ثم عندما وصل الينا الرجل يتخبط فى دمانه
كان أهم وقتك وقت اعتنائك به لانك لو لم تضمد جراحه لضى
نحبه بدون أن تطفىء نار بفضائه وتحول عداوته المرة الى صداقة
متينة وطاعة دائمة وإذ ذلك كان الجريح يطل ذلك الوقت وما
قدمته له من أيادى الخير أهم الاشياء وأنفعها لديك وأكثرها فائدة
لك . فاعلم جيدا أن ليس هناك الاوقت واجدهو من الاهمية
بمكان وذلك الوقت هو (الآن) أو البرهة التى أنت فيها وما هذا
إلا لانك تكون فيه مالكا ومستجما لكل قواك الحالية وأهم رجل
هو من تتكلم معه لانك لست عالما بما هو مسطرلك فى سجل القدر
وفعلك الخير له أنفس ما تشتغل به لان لهذا الغرض وحده دون
سواه ظهر الانسان على مسرح الحياة

الياس

هناك تحت ظل حكومة أوفاعاش رجل يدعى الياس مات والده بعد أن أتم تأهيله بمحول كامل غير تارك وراءه الاثروة واسعة لاتزيد على سبعة أفراس وبقرتين وما يقرب من العشرين رأسا من الغنم الا أنه فوق ذلك خلف لفلذة كبده الحزم والمجد فكاننا نعم الثراء وحيد الارث العظيم. أجل فقد كان الياس حازما مجدا لا يدع فرصة تمر بدون اقتناص ولا ينسى في المثابرة على اصلاح شؤونه. فكان يقوم مبكرا والناس نيام ويدافع الى فراشه بعد أن يهجع كل انسان، وجدده وحزمه كانا كفيلين بتوسيع نطاق ممتلكاته وازدياد ثروته التي بلغت في نهاية الخمسة والثلاثين عاما مائتين من الخيل ومائة وخمسين رأسا من الماشية والالف ومائتين من النعاج فضلا عن كانوا يمرحون في مزرعته من الرجال المأجورين والنساء المساجورات أولئك لرعاية ماشيته وقطمانه وهؤلاء لحلب بقره وأفراسه وعمل الكومس (١) واستخراج الجبن والزبد. ومن ذلك الوقت بسم له الدهر فأصبح الياس رب ثروة وافرة وصاحب أملاك واسعة

(١) شراب روسي مخمر يحضر من لبن الافراس

حسده عليها جيرانه ومواطنوه فقالوا عنه « الياس رجل مبخت حاله الجد فراففته السمادة وأقبلت عليه الدنيا فأصبحت طوع بنانه » ثم ذاع صيته وعلت شهرته وتهافت على زيارته كثيرون من سراة القوم وتسابق الى معرفته العدد العظيم ممن ودوا التقرب منه فكان يكرم مشواهم ويذبح لهم الذبائح ويقدم لهم كل شهي من الطعام ولذيذ من الشراب

لم يرزق الياس الا ولدان وابنة كانوا اعضاءه الاقوى أيام بؤسه يفاخون له الارض ويرعون الماشية ويباشرون كل أعمالهم بأنفسهم. أما وقد ارتاش الياس فقد تصارعت بين نفسيهما عناصر المفسد، ثم لقي أكبرهما مصرعه في عراق وأدمن الآخر على تماطى المسكرات وانقاد لامراته في عدم اطاعة أبيه والاذعان لأوامره فانفصل عنه بعد أن لم يطق معه صبرا وقد منحه الياس منزلا يأويه ووجد عليه ببعض الماشية كي تعاونه على الحياة فكانت هذه التجزئة سببا في تصغير ثروته وفاحة لمصائب حمة . فعلى أثرها انتشر وباء فتاك حصد كثيرا من اغنامه وتلا ذلك سوء محصول التمخ ثم أغارت عليه قبائل السكر غير فسلبته الصافنات من جياده فأتى هذا ضيقنا على إباله وهكذا نخرت عوامل الضعف في ذلك الثراء فانهار عليه بنيانه وأخذت عوامل التلاشي تعبت ببقايا تلك للثروة الدارسة بينما

كان الياس يوسع الخطأ نحو القبر ويثن تحت عبء الشيخوخة الثقيل اذ أربى على السبعين وقد انقطعت عنه أخبار ابنه القاصي اما الابنة فعدا عليها المنون واختطفها من بين ابويها وبذلك فقد الشيخ وزوجه آخر نصير لهما في الحياة ..

نزات بهما كل هاتيك المصائب وأحاطتهما الشدة احاطة السوار بالمعصم فألجأتهما الى بيع كل ما عندهما من بقايا اثار المجد القديم حتى أصبحا لا يملكان الا ما يستر عورتهم من ثياب أبلاها الدهر والحدان وما هي الا عشية وضحاها حتى كنت ترى الشيخ وزوجه في حالة يستمطران معها الكف المحسنين ويسا لان العطف بمجوزين تقوس ظهراهما تحت عبء الفاقة والكبر وهكذا أنزلها الزمان في الحضيض بعد السنام وصدمةم بكلكاه فاسترد ما أعارهم من مجد مؤثمل وعز قديم

بجوار منزل الياس كان يقطن محمد شاه رجل طيب القلب كريم الاخلاق الا أنه ليس من ذوى الثراء الواسع. ما كاد هذا الرجل يرى ما وصل اليه جاره حتى تذكر مجده الضائع وكرمه الماضي وعاودته ذكرى تلك السعادة التي تقلب بين أعطافها زمنا طويلا فعطف عليهما وقال لهما هيا عيشا معي ايها الرفيقيين واشتغلا بقدر ما تسمح به قوتكما وأنا الكفيل بأمر طعامكما ولباسكما وقضاء كل

مهامكما ، فلم يسميها الا أن يشكراه على حسن صنيعه وأصبحا من ذلك الوقت مشمولين برعايته بعد أن انتظما في سلك خدمته لقد بدا لهما المركز حرجا والعمل شاقا في أول الامر الا انهما ألفاه بتأثير العادة واستمر ايباشران كل ما يقويان عليه من العمل بهمة ونشاط . وكان محمد شاه يرى أن من منفعته الاحتفاظ بمثل هذين العاملين لانهما تمرنا على كثير من الاعمال فضلا عما كان يبدو عليهما من اليقظة والنشاط الا أنه من جهة اخرى كان كلما تمثلت أمام عينيه شدة السقطة التي لاقاها هذان المنكودان - سقطة المجد من أعلى قته الى أعماق هاوية المذلة السحيقة - هز رأسه أسفا وحزنا واتفق مرة أن وفد على محمد شاه بعض أقاربه القاطنين لزيارته وبرفتهم أحد المتصوفين (ملا) وبينما هم جالسون يشربون الكومس واذا بشيخ نقض الدهر مرته يمر من أمامهم فالتفت اليهم صاحب الدار قائلا : « ألا ترون هذا الرجل فأجابه احد هم نعم وماذا بعد ! فاستمر يقول :

« إن اسمه الياس ولقد أتى عليه يوم كان فيه أغنى رجل بيننا وأكبر وجيه في هذه النواحي أما الآن وقد قلب له الدهر مجنه فأصبح مشودا ضريكا فقد أشفقت عليه هو وزوجه وشملتهما بمظني وأدخلتهما في خدمتي يشتغلان معي بقدر ما تسمح ارادتهما

وإني لأخالكم قد سمعتم بهذا الاسم من قبل .
فقال الزائر « كيف لا وقد عبت شهرته في طول البلاد
وعرضها » واستمر المضيف يقول : - وهو وزوجه يقمان معي
الآن ويشغلان عندي كعاملين »

فهر الزائر رأسه بمد أن بدت على وجهه علامات الأسف
وقال متأوها - « ما أشبه الحظ بدورة الفلك فهو آونة يرفع المرء
إلى سماء السعادة وجنات النعيم وأخرى يؤدي به إلى مقر البؤس
والنحوس ولكن هل قلبه ياترى مفعم بالحزن والأسى على تلك
السعادة المفقودة والثروة الضائعة ! » فقال محمد شاه :

- ومن يدري فهو يعيش عيشة يحوطها الهدوء وتظللها
السكينة وبياسر العمل بهمة لا تعرف الكلل . فقال الضيف مخاطباً
صاحب الدار :

- أتأذن لي بوضع دقائق أفضيها في محادثة هذا الشيخ لا أستجلى
بعض أسرار حياته الماضية
- ولم لا ؟

فناداه صاحب الدار قائلاً « تعال أيها الشيخ الجليل لتشار كنا
في بعض كؤوس من الكومس نقدمها إليك »
فاقترب الياس محمياً سيده وسائر ضيوفه ثم ناوله كأساً الا

أنه ماكاد يأخذ منها جرعة نخب الحاضرين حتى أعادها مكانها
وجلس بجانب الباب وكذا أتت زوجته وجلست مختبئة وراء
الستائر . بعدئذ ابتداء الضيف في محادثته قائلاً :

- اننا على ماأظن مسيئون اليك بوجودك بيننا فان ذلك ربما
يذكرك سعادتك الماضيه ويميد اليك أشجانك الحاضرة
فتبسم الياس وقال :

- إن أردتم أن أحدثكم عن السعادة والشقاء فلا أظنكم مصدقيني
والأحرى بكم أن تسألوا زوجتي فهي امرأة وكل مافي قلبها يظهر
جليا على لسانها فكلامها الصدق وحديثها هو كل ما يختلج في
أعماق فؤادها

- فادار الزائر وجهه نحو الستائر وسأل زوجة الشيخ كيف
تقيسين بين سعادتك القابرة وشقائق الحاضر فأجابته قائلة
- اصنع الى فسا فضى اليك بالحقيقة . قضيت أنا وزوجي نحو
من خمسين عاما باحثين عن شيء مفقود منقبين عنه في كل مكان فلم
نجده الا الآن . - نم في هاتين السنتين الاخيرتين فقط منذ فقدنا
كل شيء وصرنا عاملين عثرنا على ضالتنا المنشودة ، عثرنا على
السعادة الحقيقية التي لامطمع لنا بعدها

ما تفوهت المرأة بهذا الحديث حتى التفت كل من الجالسين

الى الآخر التفاتة دلت على ما داخلهم من الاندهاش الا أنها استمرت
في حديثها بكل تؤدة وهدوء :

« مكثنا نصف قرن كامل ونحن نفتش عن السعادة بين رياش
الغنى وفي قصور البراء فلم نعثر عليها الا الآن حيث ولت هاتيك
الأيام كالاشباح وانصرفت تلك الاوقات المشعشة بانوار الثروة
فسألها الضيف :

- كيف ذلك وماذا تعنين بالسعادة ! فأجابته

- ما أشرقت علينا شمس الغنى حتى ظهرت من ورائها المتاعب
الجمّة وتوالت علينا الموموم العديدة . كنا نجلس انفسكر في الاهتمام
بأمر أنفسنا قليلا ونود لو تفرغنا لتأدية الصلاة ولكن هيبات !
كنا نحاول النوم ولكن من أين لنا ذلك وجيوش الافكار تتقفاناه
تطرد عن أعيننا الكرى، وأشباح المخاوف والوساوس تتأثرنا فتبعت
بنا في ظلمة الليل وسكونه الى حيث نخاف أن يفترس الذئب
فلوا أو عجلا أو يسرق اللصوص بعض خيولنا ونعاجنا وهكذا كلما
خامر فؤادنا الريب ولعبت بنا الهواجس دفعنا الحذر الى الاستيقاظ
عدة مرات .

كان يقصدنا الضيوف على اختلاف مشاربهم وتباين طبقاتهم
فكنا نضطر الى تضييفهم بما نقدمه لهم من أنواع الطعام ومختلف

الشراب وما تتحفهم به من الهدايا الفاخرة حتى نجس ألسنتهم فلا تكون هدفاً لسهام لعنتهم. ونسد أفواههم فلا ينزلوا علينا وإبلا من قذائف اللوم والتقريع

وفضلاً عن كل ذلك لم يكن هناك توفيق بيني وبين زوجي فكنا على تباين تام وكان هذا مبعثاً لا اضطرام نار الشحنة التي كانت تتأجج ساعات وأيام. هذه كانت حياتنا سلسلة شقاء متواصل فمن أين اذن تطرق السعادة بابنا! وكيف نتمتع بالرخاء والهناء وهذه حالنا،

أما الآن فنستيقظ من نومنا متبادلين تحية الصباح ثم نتناول طعام الإفطار ونخرج الى العمل حيث نقضى سحابة نهارنا في هدوء شامل لا يكدر صفوه مكدر. وعند الأوبة من العمل نلقى أمامنا من الطعام ما نأكله مريثاً ومن الشراب ما نلذبه هنيئاً وأمامنا متسع من الوقت يمكننا من الاهتمام بأنفسنا وتأدية فرائض العبادة لله وإذا دلفنا الى فراشنا ننام ولسء جفوننا لا تزعجنا الاحلام ولا ترهبنا المخاوف والاهوام فهى السعادة التي نقبنا عنها نصف قرن ولم نعر عليها الا في هذه الايام.

ما أتمت المرأة حديثها حتى سخر منها الحاضرون الا أن الياس

استغفزه الغضب فقال لهم :

« لاتسترسلوا في ضحككم أيها الرفاق فليس في الامر ما يستوجب المجون والمزاح - وما هي الاحقائق الحياة نسردها لكم . لقد تملكنا الجهل بادىء بدءه فانسجمت عبراتنا حزنا على ذلك العز الضائع ولكنها الحقيقة أراد الله أن يرينا اياها ناصعة فنحن الآن نقصها عليكم لالمنفعة تترقبها أو فائدة ننشدها انما هي لفائدتكم وذكري لمن يذكر »

فقال الملا إن هذه لموعظة بالغة وقول الياس الصدق اذ هو موافق لما ورد في الاحاديث الماثورة فامسكوا عن الضحك وأطرقوا كلهم يفكرون فيما دار بينهم من الحديث .



قمحة في حجم بيض الدجاج

عثر بعض الصبية ذات يوم في أحد الاقبية على شيء يشابه في الشكل حبة القمح في وسطها شق ينتهي بهائتها ولكنها في الحجم تبلغ بمقدار بيضة الدجاج . فرآها بعض السابلة في أيدي الصبية واشتراها منهم بدينس واحد ثم حملها الى المدينة حيث باعها الملك كمعجبة من عجائب الزمن

وجمع الملك علماءه وطلب منهم أن يكشفوا له عن حقيقة تلك المعجبة فأغرق العلماء في التفكير والبحث والتحصيل دون أن يهتدوا الى الحقيقة وبقى أمرها خافياً الى أن طارت نحوها دجاجة وهي في نافذة من نوافذ قصر الملك وقرتها حتى تقبها وعندئذ انكشفت الحقيقة وانجلي السر وعلم كل من رآها أنها حبة من القمح فهرع العلماء الى الملك وزفوا اليه بشرى الحقيقة .

فدهش الملك حينئذ وطلب اليهم أن يأخذوا في درس هذه القمحة ويخبروه في أي زمان زرعت وفي أي مكان نبتت فعاد العلماء الى الدرس والتفكير منكين على كتبهم للوصول الى الحقيقة الا أنهم لم يفوزوا بطائل ولم يستطيعوا حل اللغز فقالوا للملك :

« لا نستطيع أن نجيبك لأننا لم نعرف في الكتب التي بين أيدينا
على تفسير لهذا المعنى فليأمر مولانا الملك بسؤال الزارعين في هذا
الشان إذ قد يوجد بينهم من سمع شيئاً من آباءه عن زراعة القمح في
مثل هذا الحجم » .

فأرسل الملك بطب مزارع من القرويين المعمرين فبحث عمال
الملك عن رجل فيه الاوصاف المطلوبة وكان رداً صاحب اللون
لم يبق الايام على هيكاه البالي سوى جلد مجعد على عظم دقيق وكان
منحنى الظهر يتوكأ على هراوتين تساعده على الحركة . فلما مثل
بين يدي الملك عرض عليه القمح فجعل يفحصها بعينه الضعيفتين
اللتين لم يبق فيهما سوى بصيص ضئيل من نور الابصار فسأله الملك
- « أيها الشيخ العجوز أخبرنا أين تنبت مثل هذه القمح
وهل تذكر أنك اشتريت قمحاً من نوعها أو زرعت في حقلك
مايماثلها ؟

وكان الشيخ الثاني مصاب بشيء من الصمم فلا يسمع الا بعد
جهد ولا ينطق الا بشقة فاجاب بعد عناء شديد :

- كلا اني لم أزرع مثل هذه القمح في حقلى ولم أشتري
مايشابهها . فالقمح الذي كنا نشتره صغير الجرم كقمح هذه الايام
ويمكن الملك أن يسأل أبى إذ ربما يكون قد سمع شيئاً عن وجود

مثل هذه القمحة . فأرسل الملك في الحال في طلب أبيه حتى اذا
مامثل بين يديه رأى الملك منه شيخاً أقوى من الابن قليلا بنظر
بمينين أكثر بريقا من عيني الابن ولا يعتمد في سيره الا على هراوة
واحدة فسأله القيصر عند ما عرضت عليه القمحة لفحصها :

- « أتعرف أيها الشيخ أين تزرع مثل هذه القمحة ومتى
زرعت وهل اشتريت ما يماثلها في زمنك ؟

وكان هذا المعجوز أحسن سمما من الابن فأجاب على الفور
- لم أزرع ولم أحصد مطلقا مثل هذا القمح في حقلي أما انى
اشتريت قمحا فلم يحصل في زمنى لأن النقد كان غير مستعمل في
عهدى وكان كل منا يزرع ما يحتاج اليه من الخنطة ويبادل على
الحاجيات الاخرى بالقمح الزائد عن حاجته . لأعلم أين كان يزرع
مثل هذا القمح لأننى لم أر له مثيلا وفي عهدنا كان القمح أكبر حجما
وأوفر براً الا أنه لم يكن في هذا الحجم غير أننى سمعت من أبى أن
قمح زمانهم كان أكبر حجما وأوفر برا من قمح زماننا ويجدر بك أن
تسأله في هذا الشأن .

فبعث القيصر في أثر والده هذا الشيخ وما علم أن جاء على
قدميه لايثوكا على هراوة ولا هراوتين وكان براق العينين يتكلم
بوضوح بلا تلجلج وعندما أعطاه الملك حبة القمح تناولها وجعلها

يقلبها بين أصابعه قائلاً :

- لقد طال المهدي ولم أر قمحة من هذا الصنف ثم أخذ منها
قطعة بشناياه فتذوقها وأضاف قائلاً :

- انها بلا ريب من قمح ذلك الزمن .

فقال له الملك :

- أخبرنا يا جد الجدود أين كان ينبت مثل هذه القمحة وهل
اشترت ما يماثلها في عصرك وهل زرعت ما يضارعها في حقلك
فأجاب الشيخ المعجوز :

- ان مثل هذا القمح كان يزرع في كل مكان في عهدنا وقد
نشأت عليه وزرعته بنفسى وحصدت منه بيدي طول تلك الازمان
الغابرة .

فسأله الملك

- وهل اشتريت مثل هذا القمح في زمنك

فابتسم الشيخ وقال :

- لم يفكر أحد من أبناء ذلك العصر في اقتناء مثل هذا
الاثم إذ كنا لا نعلم شيئاً عن التعامل بالنقود وكان كل انسان يحتفظ
من القمح بقدر كفايته
فقال القميصر :

- اذن خبرني أيها الجدأين كان حقلك الذي كنت تزرع فيه

هذا القمح؟

فاجاب الشيخ :

- كان حقلى أرض الله الواسعة فحيت أحرت أزرع وحيث

زرعت أحصد وما كان لانسان حقل يدعى ملكيته . كانت الارض

مباحة للجميع ولا يملك الانسان سوى عمله و كسب يده .

فقال القيصر أجبني إذن عن سؤالين آخرين : أولهما لماذا

نما مثل هذه القمحة في ذلك العهد ولم ينم في هذا الزمن وثانيهما

لماذا جاءنى حفيدك يتوكأ على هراوتين وأبوه على هراوة واحدة

وأنت جئت بلا هراوة ، براق الثمر ، ثابت الجأش ؟ متلألىء

العين ، فصيح اللسان . فما السر فى كل ذلك فأجاب الشيخ العجوز

- السر فى ذلك أن الناس أصبحوا لا يمولون فى حياتهم على

العمل بانفسهم وانما جنحوا الى الاتكال والتطفل على عمل سواهم .

كان الناس فى زماننا يعيشون تحت ظلال شريعة الله فكان أحدهم

لا يحتكم الا بما تجنيه يده ويربأ بنفسه أن يفنصب ماجناه غيره ،

ثمن باهظ

— ٩ —

يوجد على سواحل البحر الابيض المتوسط . بين حدود الجمهورية الفرنسية والمملكة الإيطالية ، حكومة صغيرة تسمى (موناكو) ، يكاد عدد سكانها يقل عن أصغر المدن في أوروبا ، حيث لا يزيد السكان فيها عن سبعة آلاف نسمة ، لو قسمت عليهم أرض المملكة جميعها لما أصاب أحدهم فدانا واحداً

ويحكم هذه الحكومة الصغيرة ملك مستقل يتوج كما يتوج باقي الملوك ، وله قصر وبلاط وحاشية ووزراء بل وله أسقف وقواد وأيام للاحتفالات الرسمية واستعراض الجند ومجالس ومحام وقوانين ونظامات وجيش يبلغ عدده ستين جندياً . وفي هذه المملكة الصغيرة ضرائب كما توجد في البلاد الأخرى تجبى من التبغ والنيذو والمشروبات الروحية وضريبة أخرى على الأفراد غير أنه وإن كان الناس يدخنون ويتعاطون المسكرات كما يفعل الناس في البلاد الأخرى إلا أن ما يتوفر من هاتين الضريبتين قليل يكاد لا يكفي للمحافظة على أهبة الملك ومظاهره ولا حاشية الحاشية والموظفين ولذلك لم ير الملك في تلك البلاد مندوحة من أن يفكر في إيجاد ضريبة جديدة مبتكرة

تدر عليه بالاموال الوفيرة وهذه الضريبة تأتي من بيت للقمار يلعب فيه الناس اللعب المعروف بالروليت. فالناس تلعب وسواء أخسروا أم كسبوا فلصاحب الدار جزء معلوم من الداخل والخارج ومن هذا الجزء يستوفي الملك مبلغا كبيرا من المال والسبب في حصوله على الجزء الأوفى ان دالر القمار الموجودة في مملكته هي التي بقيت في جميع أوربا، وقد كان بعض صغار الملوك من الألمان أباحوا تأسيس دور من هذا النوع في بلادهم كانت سببا في ويلات على الناس والانسانية ورأى أهالى المانيا انه كثيرا مايفقد الرجل الى دار من هذه الدور ليختبر حظّه فيقامر بكل مايملكه من المال . حتى اذا ماخسر اقترض وقامر بأموال غيره ففقدها أيضا الى أن يدب اليأس في نفسه فينزح الى الانتحار : ولذلك ثاروا في وجوه ملوكهم ووقفوا بينهم وبين اكتساب المال بهذه الطريقة المقوتة . أما ملك موناكو فلم يعترضه معترض عن الاستمرار في اباحة المقامرة في بلاده فظل سائرا في سبيله حتى اليوم دون أن يلقى ممانعة أو معارضة حتى أصبح محتكرا لهذا النوع من العمل

فكل إنسان يريد أن يقامر يجد ابواب موناكو مفتوحة له على مصراعيها وسواء أكسب أم خسر ، فلملك تلك البلاد نصيب مما في جيبه . يقول المثل « انك لا تستطيع أن تحوز قصورا شامخة

من طريق العمل الشريف ، وملك موناكو ليعلم تماما أن مورد رزقه ملوث دنس ولكنه مضطر لأنه يريد أن يعيش ولأنه يعلم أن الاموال الاخرى التي يجيبها من ضرائب التبغ والخمور ليست اصفى ولا اظهر من أموال القمار فهو بذلك يعيش ويحكم ويهب الجوائز والاعطيات ويحافظ على أبهة الملك كسائر الملوك الحقيقيين فهو يتصدر للحكم ويقدم مهر جانات التتويج ويعطى الأوسمة ويجازى ويعفو . وله كذلك مجلس للوزراء وقوانين ومحاكم لاقامة قسطاس العدل كسائر ملوك العالم ولكن بنسبة صغيرة وقد اتفق منذ بضع سنين أن وقعت جريمة قتل في تلك المملكة الصغيرة . فقد اعتاد أهل تلك المملكة على السكينة والسلام فلذلك لم يسبق لتلك الحادثة نظير في تلك البلاد، واجتمع القضاة اجتماعا رسميا وبدأوا ينظرون في القضية وكان هناك نواب عموميون . فتناقشوا في القضية بعد درسها وأصدروا حكمهم بأن يقطع رأس القاتل كما ينص القانون ثم رفعوا الحكم الى الملك فقراءه ووقع عليه بهذه الجملة « اذا كان المجرم يجب أن يقتل فليقتل » الا أنه اعترضتهم عقبة وفتت في سبيل تنفيذ هذا الحكم فذهب لها الوزراء فيما بعد وهي عدم وجود آلة جيلوتين للاعدام أو جلاد للمملكة وبعد المداولة فيما بينهم قرروا أن يكتبوا للجمهورية الفرنسية يسألونها عما يكافه جلب آلة جيلوتين وجلاد

من فرنسا الى موناكو . وبعد اسبوع ورد اليهم الرد بأن ارسال الآلة وما مورها يكاف ستة عشر ألف فرنك فلما عرض الجواب على الملك دهش منه وقال مستغربا ما هذا ؟ ان الشقى لا يساوي هذا المبلغ أفدفع ستة عشر ألف فرنك دفعة واحدة ؟ ألا توجد طريقة أرخص من هذه ؟ ان المبلغ المطلوب لو وزعناه على سكان المملكة لأصاب الواحد منهم أكثر من فرنكين . وذلك لا يرضى الشعب وسيحدث بلا شك هياج في الافكار والخواطر . ثم دعي مجلس الوزراء الاجتماع والنظر في المسألة من جديد فقرروا أن يرسلوا كتابا الى مملكة إيطاليا لما بينه وبين ملك البلاد من أو اصر الاخوية في الملكية وخليق بأن يلي الطلب بثمن أقل وأرخص

فأرسل الكتاب وبعد زمن وجيز وردت الاجابة فاذا فيها أن إيطاليا ترسل الآلة وما مورها لسرور ونظير تقفات تقدر بمبلغ اثني عشر ألف فرنك وهو مبلغ أقل من الاول الا انه لا يزال باهظا بالنسبة لتلك المملكة الصغيرة ومن أجل ذلك دعى الوزراء للانتظام مرة أخرى فاجتمعوا وتداولوا في ايجاد طريقة أرخص من هذه فقال بعضهم ألا يمكن لأحد من الجنود أن يقوم بذلك العمل ولو بطريقة خشنة وسرعان ما ارتاح الحاضرون لهذه الفكرة وعزموا على دعوة قائد الجند اليهم لأخذ رأيه في الموضوع ، فلما حضر

الى المجلس قالوا له :

— ألا يمكن أن نجد لنا جنديا يستطيع أن يقطع رأس انسان ؟
فان الجنود لا يبالون بقتل البشر في الحروب وهم يدربون في الحقيقة
على القتل ويتمنون عليه ،

فاستمهلهم القائد بينما يعرض الامر على جنوده ليرى من
فيهم يقدر على القيام بتلك المهمة ، وعند ما ذهب اليهم وفتحهم في
الأمر لم يقبل أحد منهم أن يؤدي تلك المهمة البشعة ، وقالوا جميعا
اننا لانستطيع أن نؤدي ما تدعونا اليه وليس ذلك مما تعلمناه

فعاد الوزراء الى التفكير في الأمر واجتمعوا مرات متعددة
وقرروا أخيراً استبدال حكم الاعدام بالسجن المؤبد ، ظنا منهم ان
هذا أحسن حل للمشكلة وأرخص كلفة ، وأقل نفقة ، فضلا عما
فيه من مظهر الرحمة والشفقة . ولذلك لم يتردد الملك في قبول القرار
والتصديق عليه ، الا انه عقب صدور هذا القرار الثاني اعترضتهم
مشكلة جديدة ، ذلك انه لم يكن في المملكة سجن يصلح لحبس
المجرمين مدى الحياة ، اللهم الا سجن واحد بسيط كانوا يحبسون
فيه أحيانا بعض الناس جبا مؤقتا ، وبعد اتمام النظر طويلا في
الامر توفقوا الایجاد محل مناسب وضعوا فيه المجرم الشاب وعينوا
له حارسا ليحرسه وليحضر له الطعام من مطبخ القصر .

ومر على ذلك عام كامل وجاء اليوم الذي يعرض فيه حساب نفقات القصر على الملك ، فلما عرض عليه رأى في قائمة الحساب نفقات جديدة تحت عنوان « نفقات المحافظة على السجين واطعامه » تربوا على ستمائة فرنك وأنكى مافى المسألة أن السجين شاب يتمتع بصحة جيدة تدل على انه سيعيش على الأقل خمسين عاما أخرى . ولذلك دعا الملك وزراءه أزاء هذا الأمر الخطير وقال لهم : يجب أن تجدوا طريقة أرخص من هذه لتعامل بها هذا الخبيث . ان في الطريقة الحاضرة غنا كبيرا وأسرانا فاحشا ، فاجثوا لنا عن طريقة تنقذنا منه فاجتمع الوزراء بصفة غير عادية ونظروا في الامر وفكروا فيه . فسئحت لأحدهم فكرة عرضها على زملائه بقوله انى أرى أيها السادة أن نعزل الحارس ونستغنى عنه

فاعترضه بعض الوزراء قائلا وليسكن السجين سيفر حينذاك فاجابه صاحبه ليفر الى حيث يريد فاستريح منه . وتم الاتفاق على هذا الرأى وأقره الملك .

وفي اليوم التالى أمروا الحارس بأن يتنحى عن السجين وانتظروا ليروا ماذا يحدث ، الا ان السجين لم يحقق أملهم فانه بقى في سجنه حتى وقت الغذاء ، فلما تأخر مجيء الطعام عن ميعاده فتح باب السجن لينظر الحارس فلم يجده — فذهب بنفسه الى مطبخ

الملك وأخذ من هناك طعامه ثم عاد الى سجنه ، وفي الايام التالية
عمل ذلك أيضا واستمر على هذه الطريقة دون أن تبدو عليه أماراة تدل
على عزمه على الفرار ، فاسقط في يد الوزراء هذه المرة أيضا وفكروا
في كيفية الخلاص من هذه الحال . ففكروا فيما بينهم واستقر رأيهم
بان يقولوا له يجب عليك بان تغادر السجن الى حيث تشاء . لاننا
لا نريد بان تبقى فيه فارسل اليه وزير الحتمانية وأحضره بين يديه
وقال له : لم لاتهرب يا هذا ؛ انه لا حارس يحرسك الآن فنتستطيع
أن نذهب الى حيث تشاء من غير أن يؤاخذك الملك . فأجاب الرجل :
— أعلم يقينا ان الملك لا يهتم بالامر ان أنا فررت وليكني
لا أجد مكانا أهرب اليه ولا أعتقد اني أستطيع أن أعمل عملا .
لانكم شوهمتم سميتي . وأفسدتم أخلاقي بحكمكم الذي أصدرتموه ضدى
وجعلتم الناس يولونى ظهورهم حينما حللت . وفوق هذا كله فقد
عظمت أشفانى وعاملتمونى معاملة سيئة . لقد حكتم على بالموت فى
بادئ الامر وكان يجب أن تعدمونى . ولكنكم لم تفعلوا فلم أتدمر .
ثم حكتم على بعد ذلك بالحبس المؤبد وعيذتم لى حارسا يحضر لى
طعامى فلم أتأقف . وبعد زمن طردتموه وأرغتمونى على أن أنقل
طعامى بنفسى فما شكوت من ذلك أيضا . وهأنتم اليوم تريدون منى
أن أهرب الامر الذى لا أَرْضاه ولا أقبل به . فاعملوا بى ماشئتم فانى

لن أهرب أبداً!

انعقد المجلس لينظر في الطريقة التي يجب اتباعها بعد ذلك
ف رأى ان خير الطرق أن يعين له راتب سنوى بشرط أن يرحل
من أرض المملكة ولا يسكنها. وعرضوا الامر على الملك قائلين له
انه لا يوجد حل آخر لهذه المشكلة اذا أردنا أن نتخلص منه .
فوافق جلالته على اعطاء الرجل ستمائة فرنك في كل سنة بشرط
الايسكن في أراضي الملك

وعلى هذه الصورة انتهى الامر واستلم الرجل ثلث مرتبه
السنوى مقدما وغادر تلك البلاد الى بقعة تبعد عن الحدود نحو
ربع ساعة في القطار حيث ابتاع له قطعة من الارض جعلها بستانا
فهو يعيش الآن برخاء ويذهب في أوقات معينة ليقبض راتبه
وبعد أن يتناوله يمر بيت القمار فيلعب بفرنكين او ثلاثة فاما ان
يخسرها او يربح مثلها . ثم يعود الى مسكنه حيث يعيش بسلام
واطمئنان

وقد كان من حسن حظّه انه لم يراتكب جريمة في بلاد لايبالي
اهلها مما يكافه اعدام الرجال او بما يلزم لسجنهم المؤبد من النفقات.

١٠

الاسطورة الهندية

العمل والمرض والموت

من الاساطير المتداولة بين هنود أمريكا الجنوبية أن الله خلق الناس في بدء الامر ورفع عنهم كلفة العمل فما كانوا يشعرون بضرورة المسكن والملبس والطعام وظلوا على ذلك زمنا طويلا حتى صاروا مائة انسان وكانوا الى ذلك الوقت لم يشعروا بألم المرض وأوجاع الملل .

ثم أراد الله أن يرى كيف يعيش خلقه فلما وقف على حالهم ألفاهم يقاتل بعضهم بعضا ووجد كلا منهم لا يعبا بغيره وانما يتم بأمر نفسه مما يحول بينهم وبين الحياة السعيدة والعيش الرغد الذي ينتظره لهم فقال : « انما هذا البلاء جاءهم من طريق التفرق والانقسام ومن اهتمام الواحد منهم بامور نفسه فحسب » ولذلك غير مجرى حياتهم وقد كانت من غير عمل بان سلط عليهم البرد والجوع ليجبرهم على نحت المغاور والكهوف يلتجئون اليها اتقاء البرد وليضطرهم الى السعى في جمع الفواكه والثمار والحبوب دفعا لفائلة الجوع اذ

ان العمل يوجد فيما بينهم رابطة الاتحاد والتالف فقال :
- ولا يستطيع الرجل بمفرده أن يصنع كل ما يلزمه من الآلات
والادوات ولا يمكنه أن ينقل ما يحتاج اليه من الخشب ولا أن يبني
وحده المساكن التي تقيه العواصف والزوابع ولا أن يفلح الارض
فيجمع محصولها ثم ينزل وينسج ويصنع الملابس والثياب لان كل
هذه الامور تستدعي المعاونة وبذلك يتم لبني الانسان الرابطة
والائتلاف والاتحاد دون أن يشعروا بالدافع فيتم سرورهم وتكمل
سعادتهم»

ثم مرت أيام وأزمان ورغب الرب في أن يزور خلقه ليرى
هل هم سعداء في حياتهم الجديدة أم أشقياء تمساء ؟ ولما أتاهم
وجدهم في حالة أسوأ من الاولى

لقد فعلوا ما قدره لهم واشتروا في العمل ولكنه كان
اشتراكا يعتوره النقص ولا يصل بهم الى العناية المطلوبة . فانهم
كانوا قد انقسموا الى جماعات تفرقها الالهواء والغايات تحاول أن
تستأثر بالعمل والى عرقله مساعي الاحزاب الاخرى . فصاروا
يتنافسون ويتزاحمون ويتباغضون بكل ما فيهم من بغض وقوة
فساءت حالتهم واشتد كربهم

وعمد الرب بعد ذلك الى اصلاحهم من طريق آخر فقدر

عليهم الموت وألا يعلموا وقت هذا القضاء وأشعرهم بذلك قائلاً :
« اذا ما عرفوا ان الموت لهم بالمرصاد يحافظون على أوقاتهم

ويضنون بأعمارهم فلا يصرفونها الا في الاعمال الصالحة
» غير ان ذلك لم يثمر النتيجة المطلوبة بل رأى الرب عند
اطلاعه على حالهم في حياتهم الجديدة انه لم يحدث تغيير في شأنهم
ولا تبديل بل بقى سوء الحال ملازماً لهم حيث اغتتم الاقوياء فرصة
خضوع الانسان لقانون الموت في أى وقت وأى حال فأخضعوا
لارادتهم الضعفاء بعد أن قتلوا من قاومهم وتوعدوا المتمردين الباقين
بالموت والهلاك

فأصبح الاقوياء بهذه الوسيلة يجنون ثمرة كد الضعفاء
ونسج أعقابهم على هذا المنوال فورثوا الاستئثار بمجني الضعيف
من أجدادهم يمشون على اكتاف الضعفاء من غير تعب ولا نصب.
وايكن الاقوياء ظلوا يشكون البطالة ويتململون من حياة
الكسل بينما الضعفاء يتألمون ويتدمرون من اشتغالهم بأكثر مما
يطيقون ويتضجرون من زيادة التعب وقلة الراحة واتسعت حلقة
الخلافاً أثناء ذلك بين الفريقين واشتدت أسباب العداوة والبغضاء
وهكذا صارت حياة الناس بعيدة عن غاية السعادة .

ورأى الرب كل ذلك فعمد الى اصلاح حالهم ومعالجة شأنهم

بوسيلة أخرى فسلط عليهم ضروب الامراض وأنواع العلل ظنا
منه أنه متى تعرض الناس للعلل والامراض على السواء تتحرك
الرحمة في قلوب الاصحاء على المرضى فيشفقون عليهم ويواسونهم
ويعدون اليهم يد المعونة ليقابلهم المرضى بالمثل اذا ما تعرضوا
لسهام المرض

وبعد زمن طويل عاد الرب الى اختبار حالتهم الجديدة
فوجدهم أسوأ من ذى قبل وأشد كربا مما كانوا عليه في سالف
العهد . لان الامراض التي سلطها عليهم لتكون واسطة لتأليف
القلوب كانت سببا في التفرقة والتباعد اذ بقي الاقوياء يستخدمون
الضعفاء وقت المرض ولا يهتمون بشأنهم عندما تنتابهم العلل .
وهكذا كان اولئك الضعفاء المساكين يعملون لمنفعة غيرهم طول
حياتهم ويخدمون سادتهم في حالتى الصحة والمرض بينما هم لا
يجدون فرصة لمداواة امراضهم ولا يلقون عظما وعناية من أحد .
لقد بنيت لهم بيوت خاصة يقيمون فيها اوقات المرض فيحيوا أو
يموتوا للثلايمكر .نظرهم . وهم يعانون أوجاع المرض . صفوا أولئك
الاقوياء وسرورهم . فيتركون في تلك المساكن الخاصة لعناية أناس
مأجورين يمدونهم بلا دافع عطف أو حنان وفوق هذا كله
حمل خوف العدوى الكثيرين على اجتناب الاختلاط بالمرضى

والإتماد عن كل من يخالطه .

ورأى الرب هذه الحالة فقال :

- « اذا كانت هذه الوسيلة لم تكف لافهام الناس أين تكونون

السعادة فليكن الألم في المستقبل مرشداً لهم »

ثم ترك أمور الناس لهم يتصرف فيها كيف شاؤوا

هذه هي أسطورة هنود أمريكا وقد مرت على البشر عصور

كثيرة قبل أن يدركوا كيف يكونون سعداء . وفي الايام الاخيرة

بدأ قليلون يشعرون بأن العمل ليس معناه استعباد الناس وانما هو

وظيفة عامة مشتركة يؤايف بين الناس ويجمع شملهم وصاروا

يفهمون أن الشيء الوحيد الذي نستطيع به أن نقابل تهديد الموت

الواقف لنا بالمرصاد هو صرف أعمارنا في الاتحاد والالفة والمحبة

والسلام وان العمل والامراض أبعد ما تكون عن تفريق الناس

وتشتيت شملهم بل هي بالعكس الوسيلة التي تدفعهم الى التجاب

والتآلف

صحيفة

المقدمة

- ١ ترجمة حياة المؤلف
١٤ قصيدة شوقي بك في رثائه
١٩ الحكاية الاولى - بم يعيش الناس
٣٥ الحكاية الثانية - مشرب سورات
٤٨ » الثالثة - كم هو نصيب الانسان من الارض
٧٥ » الرابعة - ابن العراب
٩٧ » الخامسة مكيدة الشيطان
١٥٤ » السادسة - ثلاثة أسئلة
١٩١ » السابعة الناس
١٢٥ » الثامنة - قمحة في حجم بيض الدجاج
١٣٥ » التاسعة - ثمن باهظ
١٣٥ » العاشرة الاسطورة الهندية

